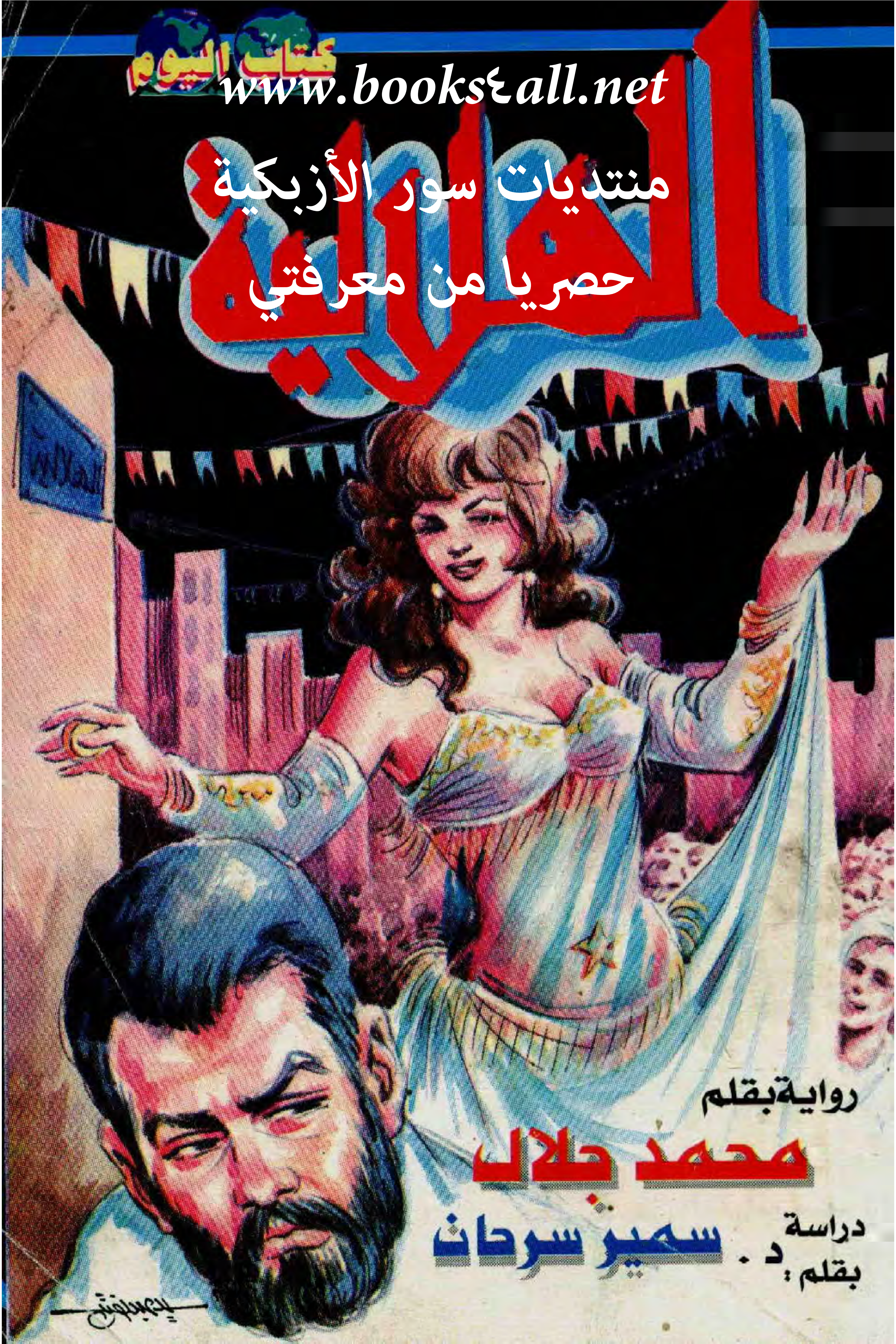

كتاب اليوم
رواية بقلم
محمد جلال
دراسة بقلم: د. سمير سرحان

كتاب اليوم

يصدر عن دار
أخبار اليوم
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

رئيس التحرير :
نبيل أباظة

□ أبريل ١٩٩٦ □

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	١٧	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٧٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	١٥٠	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٢ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٢٧ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٢ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٢ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

الهلالية

رواية بقلم:

محمد جـلال



الحب هو الحرية

الغلاف	بريشة الفنان	سيد عبد الفتاح
الرسوم الداخلية	بريشة الفنان	محمد عمر ..
إخراج		أحمد سامح حسين

العالمية

محمد جلال والرواية المصرية

دراسة بقلم الدكتور

سمير سرحان

لم تعرف الرواية المصرية ـ فى رأيى ـ طريقها إلى التعبير عن وجدان الانسان المعاصر، وعن النسيج الفكرى والنفسى الذى يتكون منه عالمنا المعاصر، ليس فى مصر وحدها وإنما فى العالم كله، إلا قريبا جدا.. ربما فى أعماق نجيب محفوظ الأخيرة وخاصة اللص والكلاب. وأصبح على الجيل التالى ـ ومن بين كتابه المجيدين بلا شك محمد جلال ـ أن ينتقل بالرواية المصرية إلى مرحلة جديدة نستطيع أن نقول معها: إن لدينا رواية «حديثة».

والسبب فى أن الرواية عندنا لم تستطع أن تقف جنبا إلى جنب مع الرواية الأوروبية، هو أن الرواية عندنا منذ بدايتها حتى ثلاثية نجيب محفوظ ـ مع استثناءات قليلة ـ كانت تسير على المنهج الروائى الذى ساد الرواية الأوروبية منذ القرن الثامن عشر وحتى أواخر التاسع عشر تقريبا.. وهو منهج ـ فى عمومه ـ يعتمد على «تصوير» الواقع وليس التعبير الشعرى عنه، والفرق بين المنهجين هو الفرق بين الرواية القديمة حتى ظهور جيمس جويس والرواية الحديثة بعد ظهوره.. «فالتصوير» يعتمد على نوع من تسجيل الواقع أو تحقيق أكبر قدر من مشابهة الواقع، سواء فى تصوير الشخصية أو فى اعتماد الرواية على تصوير قطاع من قطاعات المجتمع أو الصراعات التى تضطرم بها فترة تاريخية فى رقعة روائية بالغة الاتساع.. ورغم أن الرواية بهذا المفهوم تحاول أن تعطى الواقع شكلا، وذلك باكتشاف علاقات جديدة فيه وبأن تكشف عنه من خلال وجهة نظر الكاتب ومفهومه للحياة.. إلا أن الانطباع النهائى فيها هو محاولة إعادة خلق الحياة بأبعادها الحقيقية فى نطاق موقف معين أو «قصة» معينة تتطور من نقطة إلى نقطة فى نظام منطقى يرتب الأحداث ترتيبا سببيا وبالتالى ـ ففى الرواية المحكمة البناء ـ وهى أفضل حالات الرواية التقليدية ـ ينبع الجزء من الكل ويتطور الموقف منطقيا حتى يصل إلى نهايته الطبيعية.

والمفهوم التقليدى للرواية على انها «إعادة خلق الحياة» وتحقيق «مشابهة الواقع» هو مفهوم نابع من طبيعة الوظيفة التى كانت تؤديها

الرواية عند نشأتها. ففى غياب وسـائل التسلية الأخرى (ماعدا المسرح) فى العالم الغربى.. كان على الرواية أن توفر أولا عنصر «الحدوتة» التى لابد أن تتوافر لها عناصر التشويق اللازم كما لابـد شأن أى حدوتة ـ أن تقوم على تطور منطقى أو اطرادى للأحـداث المترتبة على بعضها البعض حتى تحقق متعـة متابعـة القصة من نقطـة إلى أخـرى.. ولايمكن للدارس هنـا أن يتبع التطورات التكتيكية الهائلة التى حدثـت فى الرواية إلا اننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إن «القصة» أو «الحدوتـة المتطورة إلى نهايـة معينة» ظلت دائما الأساس فيهـا حتى عندما اكتشف الكـاتب الروائى انـه يستطيع استغلال القصـة فى تصوّيـر أعماق النفس البشريـة أو فى الكشف عن خبايـا النفس الانسانية.. ومع وجود القصة فى مقدمـة العناصر التى تتكون منها الرواية التقليـديـة ظلت الـروايـة دائما «تسجيـلا» للـواقع.. وظل «الموضـوع» أو «المادة» التى يقـدمهـا الـروائى هـى التى تحتل المكـان الأول من الاهتمام بغض النظـر عن «الشكـل» فمادام الكـاتب الـروائى ــ كما قــال النـاقـد سانسبترى عـام ١٩٢٦ـ يستطيع أن يخلق قصـة ويقدم فيهـا شخصيات مثيرة لـلاهتمام فهـو ليس بحاجـة إلى الشكل، ولم يكن سـانسبترى وهـو يقول هـذا الكلام واعيا بأن الفن الـروائى يستطيع أن يقدم اكتشافـا معينا للواقـع والعلاقات والقـوانين التى تحكمـه كما يكشف لنا أعماق التجـربة الإنسـانية.. وليسـت مهمته الـوحيـدة أن يعطينا متعـة تتبع «القصـة» أو الحدوتة.. وانه يستطيع ذلك بأن يعطى التجربة الانسانية الشكل.

ومع ظهـور جيمس جـويس فى روايـة صـورة الفنان فى شبـابـه عـام ١٩١٤. اكتشف الفنان الـروائى فى أوروبا أن الحدوتـة أو «القصة» لا تمثل إلا أداة من أدوات خلق التجربة الانسانيـة، والكشف عن أبعادها فى الشكل الـروائى تماما كما يمثل الحوار فى المسرح أداة واحـدة تلعب مع غيرهـا من الأدوات وفى تكـامل معها دورا فى البنـاء العـام.. واكتشفنـا أن البناء العـام للروايـة يمكن أن يكون فى مجموعـة وبعناصره المختلفـة (ومن بينها السرد والحدوتة والشخصيـات وعلاقتهـا مع بعضها البعض.. الخ) «كنـاية» عن

حالة إنسانية معينة.. وبهذا المفهوم ابتعدت الرواية عن كونها مجرد حدوتة تثير الاهتمام والمتعة فقط بسبب قربها أو تشابهها مع الواقع.. أو بسبب مافيها من نقد اجتماعي أو تصوير لجوانب الصراع أو التناقض، واقتربت كثيرا من أن تكون صورة شعرية بالمعنى الفني لهذا الاصطلاح.. أي تركيبا معقدا يكشف في علاقاته المختلفة عن كنه الوجود الانساني في موقف مشحون بالصراع.. والفرق بين المفهوم التقليدي للرواية على أنها تسجيل أو تصوير للواقع، والمفهوم الحديث للرواية على انها كتابة لحالة انسانية أو «صورة شعرية» تكشف عن أبعاد الوجود الانساني في موقف مشحون بالصراع هو الفرق بين الرواية التقليدية «الواقعية» بالمفهوم العام للكلمة، والرواية الحديثة.. فنحن إذا تجاوزنا عن الفروق التكتيكية بين أعمال كبار كتاب الرواية في القرن التاسع عشر ومع استثناء بعضهم كجوزيف كونراد ودستوفسكي إلى حد ما مثلا، لاستطعنا القول بأن الرواية الأوروبية عموما تندرج تحت مفهوم «الواقعية» بمعناها العام وهو محاولة اعطاء صورة قريبة من الواقع.. (وذلك باستثناء الرواية التاريخية الرومانتيكية طبعا عند والتر سكوت وديوماس الابن).. وكان اكتشاف «التكنيك» في الرواية الحديثة كعنصر في أهمية «الموضوع» أو «القصة» بل يكاد يفوقه في الأهمية من أهم الاكتشافات التي تحولت بفن الرواية عن التسجيل أو التصوير.

وبهذا المفهوم لايصبح تتابع الأحداث بطريقة منطقية أو العلاقات المنطقية بين الشخصيات في المحل الأول من الأهمية وانما تأخذ الخبرة الانسانية نفسها كما تفصح عن نفسها من خلال موقف معين وكما تنطبع على وعي الشخصية الرئيسية أو الشخصيات المختلفة المحل الأول في الاهتمام. وبالتالي فإن التتابع الزمني أو المكاني أصبح غير ذي أهمية.. إذ أن جزئيات التجربة بغض النظر عن الزمان أو المكان هي التي تحدد مراحل تطور البناء الروائي، ومن ثم لايعود للزمن المنطقي أو التسلسل المكاني قيمة بل يصبح التركيز أساسا على الزمن النفسي وليس على الزمن

الواقعى ويصبح المكان ذا قيمة فقط إذا عبر عن جزئية من جزئيات التجربة.. ولذلك ففى الرواية الحديثة يصبح الزمن عبارة عن حبات متناثرة كل منها تؤدى دورها فى خلق جزئيات التجربة ولايعود سلسلة من التتابع المنطقى.

وزوال البناء الواقعى القائم على السببية والمنطقية التى تنحو نحو مشابهة الواقع، مرتبط أشد الارتباط بتعقد الحياة الحديثة وتعدد جوانب الخبرة البشرية بشكل لم يعد معه من الممكن تستطيع التجربة بل أصبح من المحتم الالمام بكل جوانبها والبناء الحديث القادر على فرض شكل معين على الواقع يحوله إلى «صورة شعرية» أو كناية عن حالة إنسانية جاء كضرورة للتعبير عن تعقيد التجربة الانسانية وثرائها.

وقد ظلت الرواية المصرية أسيرة المفهوم التقليدى لفن الرواية لفترة طويلة وباستثناء أعمال قليلة.. وربما يعود السبب فى ذلك إلى حداثة عهدنا بفن الرواية ذاته.. أو إلى عدم تعقد الحياة فى المنطقة التى نعيش فيها من العالم تعقدا كبيرا حتى نهاية النصف الأول من القرن الحالى.. بينما كانت الثورة الصناعية فى أوروبا وماتبعها من انتصارات علمية كبيرة وحروب مدمرة فى أوروبا مسئولة عن هذا التعقيد والتشابك الذى لون حياة الانسان الغربى. فقد كان مجتمعنا إلى فترة قريبة مجتمعا زراعيا، العلاقات البشرية والنفسية هى علاقات مبسطة وليست معقدة.. مما استتبع نوعا من التفكير المبسط الذى يقابل النمط الزراعى البسيط فى الحياة.. وكان ذلك مسئولا عن فهم روائيينا للنفس البشرية على انها نفس ذات بعد واحد.. تسيطر عليها نزعة نفسية واحدة، فهى إما شخصية شريرة بالطبيعة أو طيبة بالطبيعة.. أو هى تتصرف وفق موقف منطقى واضح من الحقيقة سواء بالقبول والاستسلام أو الرفض والصراع.. واتفق هذا المفهوم فى الرواية المصرية ـ على عمومها وباستثناء أمثلة قليلة ـ مع مفهوم الواقعية بمعناها الواسع أى الرواية ذات البناء التقليدى الذى لايرى الانسان إلا من خلال بعد واحد أيضا.. هو علاقته بالمجتمع الذى

يعيش فيه، ولايلقى كثير بال إلى تعقيد خبرته البشرية وتعدد نواحيها..

ولم يكن من المعقول أن يحدث التطور إلى تصوير هذا التعقد فى النفس البشرية إلا إذا تعقد المجتمع ذاته.. وتعقدت وتعددت علاقته وتناقضاته وصراعاته، وأصبح واعيا أيضا بالصراعات التى تدور فى العالم من حوله.. وقد أصبح على الجيل التالى لجيل الكبار من أمثال نجيب محفوظ وعبدالحليم عبدالله وغيرهما أن يخطو بالرواية نحو خلق صورة شعرية مركبة تعكس هذا التعقيد الجديد فى حياتنا ومجتمعنا فى الفترة المعاصرة.

هذه هى المهمة الخطيرة التى واجهت محمد جلال كأحد أبناء هذا الجيل الجديد من الروائيين.. فعندما بدأ محمد جلال كتابة الرواية وأخرج روايته الأولى حارة الطيب عام ١٩٦٢ كانت الرواية المصرية قد اكتملت لها مراحل التطور مع بداية عيسى بن هشام إذ اعتبرنا هذا العمل البذرة الأولى نحو خلق الفن الروائى فى مصر إلى رومانسية هيكل فى زينب إلى واقعية الحكيم الرومانسية فى عودة الروح ثم إلى الواقعية الحديثة فى روايات نجيب محفوظ حتى مرحلة الثلاثية وباستثناء الروايات التاريخية بطبيعة الحال.. وباكتمال مراحل التطور هذه اقتربت الرواية المصرية فى نضج بنائها التقليدى وفى اهتمامها بتصوير الواقع كثيرا من رواية القرن التاسع عشر فى أوروبا.. وكانت تاريخيا وفنيا بسبب ظهور الرواية الفنية متأخرة جدا فى البيئة العربية أفضل نتاج لفهم الحياة يشبه كثيرا فهم القرن التاسع عشر الأوروبى بما يصاحب هذا الفهم من تكنيك مبسط وفهم مبسط لطبيعة النفس البشرية ـ وطبيعة الحياة الحديثة، ولكن الرواية المصرية (باستثناء اللص والكلاب ربما) عند الكتاب الراسخين لم تتعد أبدا هذه المرحلة.. وعندما أتى جيل جديد من الكتاب كان عليهم أن يقوموا بهذه الرحلة الشاقة لتطوير الرواية المصرية بحيث تعبر عن نظرة جديدة إلى طبيعة الواقع والحقيقة.

ولكن أزمة هذا الجيل الجديد فى البداية ـــ وفى مقدمتهم محمد جلال بلاشك ـــ كانت تتمثل فى أنهم بدأوا يكتبون تحت ظل نجيب محفوظ الذى

بدأ ــ ولايزال إلى حد كبير ـ عمـلاقا منتهى أمل الكاتب الـروائى الجديد أن يصبوا إلى ماحققه.. ناهيك عن أن يتقدم خطوة بعده.

ومن هنا جاءت المحاولات الأولى لهؤلاء الكتاب صادرة من تحت معطف نجيب محفـوظ أو من مدرستـه إذا جاز هذا القـول ولكن كان هـذا فقط فى الظـاهـر.. فرغم محاولـة تحقيق مشـابهة الـواقع.. ورغم السرد الـواقعى والاحتفاظ بمنطقية الزمان والمكـان.. إلا أن الانطباع النهائى فى عمل الكتاب الجدد ـ وفى مقدمتهم محمد جلال ـ كان محاولة خلق صورة تعادل الحياة وتكشف عن أعماق الحالـة الانسـانيـة أكثـر من محاولـة لنقل الحيـاة فى صورة تماثلهـا أو تشابههـا كما كان الحال فى كتاب الجيـل الذى سبقهم.. ومحمد جـلال نموذج لهذا الفرق الـدقيق بين جيلين كما هو نمـوذج لتطور الرواية فى مصر من مرحلة سابقة إلى مرحلة أخرى جديدة.

ويمكن أن نقسم عمل محمـد جـلال الروائى إلى فترتين.. أولاهما يبـدو فيها تأثير التيـار الواقعى واضحا وبخـاصة تأثير نجيب محفـوظ.. وهذه الفترة هى التى تبدأ بحارة الطيب (١٩٦٣) وتنتهى بالكهف (١٩٦٧) وهى تضم إلى جانب هـاتين الروايتين الـرصيف (١٩٦٣) والقضبان (١٩٦٥). أما الفترة الثانية فهى التى بدأهـا الكاتب بروايته القصيرة الأنثى فى مناورة (١٩٧٠) وتلاهـا بروايـة الملعونة التى يجدهـا القارىء بين صفحـات هذا الكتاب.. وفى هذه الفترة الجديدة ـ التى لم تكتمـل بعد على مايبدو ـ تخلص الكاتب تماما من تأثير الواقعية كما تخلص من تأثره بنجيب محفوظ.. وبدأ يكتب رواية حـديثه بمعنى الكلمـة.. يحاول فيها أن يخلق صورة شعـرية تعادل الواقع ولاتصوره.

الفترة الأولى :

ورغم جنـوح محمـد جلال فى الفترة الأولى من حيـاتـه الـروائية نحـو الواقعيـة.. إلا أنه لم يتـوقف عند هـذه المرحلة.. وإنما حـاول داخل الاطار الواقعى الصـارم الذى فـرضته عليـه التقاليد الأدبيـة السائدة فى الـرواية المصرية عندما بدأ يكتب.. حاول أن ينتقل بالرواية المصرية خطوة جديدة..

وذلك بأن يستخدم الاطار الواقعي فى الاشــارة إلى حقيقة إنسانية أكبر كثيرا من الواقع.

ولذلك فإننا نجـد أن هذه الروايات جميعا لاتزيـد فى عدد صفحاتها على المائتى صفحـة إلا قليـلا.. بل ان بعضها مثـل الرصيف لايـزيـد على المائة صفحة إلا قليلا.. وصغـر الحجم هذا يدلنا على أن الكـاتب لايريد أن يفيض بـوصف الواقع لكى ينقل لنـا صورة أمينـة له كما يفعل الـواقعيون بقـدر ماهو يـريد أن يختار موقفا واقعيا مبنيـا على بعض التفاصيل القليلة.. لكى يصل من خلالـه إلى ادراك حالة إنسـانية مـا أو حقيقى يشير إليها الموقف الواقعـى وهذه الحقيقـة فى أساسهـا مايريـد الكاتـب إيصالـه.. والحقيقة الانسانية التى تشغل محمـد جلال فى أعماله جميعا.. حتى الـواقعية منها.. هى محاولة تحقيق الذات التى يقابلها نوع من أنواع القهر.

ويصل هذا الموضوع الرئيسى الذى يشغل بال الكاتب منذ بداية حياته الأدبية إلى قمة النضج فى المعالجة الروائية فى الملعونة.

يختـار محمـد جلال فى الـروايـات الـواقعيـة الأولى قطاعـا معينـا من المجتمع.. هـو فى أغلب الأحيـان الطبقــة العـاملـة أو الفقـراء والمعـدمين.. ويصورهم فى حـالة صراع مع قـوة أكبر منهم تحاول دائما قهرهم.. تتمثل أحيـانا فى شخص انتهـازى بـلاخلق مثلما فى حارة الطيب أو فى شخصيـة شيطـانيـــة متسلطـة تستغل الأطفـــال والصبيـة وتطلقهـم فى الشـوارع يشحـذون لحســابها الخاص مثل المعلمـة حلـوة فى الـرصيف أو اقطـاعى يحاول أن يغنم مكـاسب سياسيـة على حساب الفـلاحين مثل أحمد بك فى القضبـــان، واختيـار الكــاتب لهذا الصراع بين الطبقـة الفقيرة المستغلـة وشخص يمثل قـوة الاستغـلال فى اختيـار لإطار معين شـاع فى السنـوات الأولى من الستينـات فى مصر نتيجة لتأثير كـاتبنا فنيـا بمدرسـة الواقعيـة الاشتراكية التى يمثل الكاتب الروسى جوركى علمها الأول. وفى ذلك الوقت كـانت النظـرة الاجتماعيـة فى الفـن تحتم على الفنـان أن ينظـر إلى النسيج الاجتماعى من خلال الصراعـات القائمة بين الشعب العامل سـواء كان من

الفلاحين أو العمال وهؤلاء الذين يسيطرون على مقدراته.. وكانت هذه النظرة تحتم بالضرورة أن ينتهى العمل الفنى بانتصار الطبقة العاملة.. وانحدار قوة الاستغلال.. ولانستطيع القول بأن الظروف الاجتماعية وحدها التى مرت بها بلادنا قبل الثورة هى المسئولة عن هذا النوع من التفكير الروائى أو الفنى على إطلاقه.. فلهذا المنهج جذوره فى التراث الأدبى العالمى ابتداء من المدرسة الطبيعية - إن كانت تعنى فى صورتها الأولى بتصوير حتمية البيئة والوراثة فى تشكيل حياة الإنسان - إلا أن اهتمامها بإنسان الطبقات العاملة كميدان صالح لمثل هذه الدراسة وسع من نطاق الدائرة الروائية التى كانت تتحرك فيها حتى أصبح الصراع قائما أساسا بين طبقة ظلت مهضومة الحق طوال التاريخ الإنسانى وبين القوى التى تحافظ على مصالحها الخاصة باستغلال الطبقة العاملة أسوأ استغلال.

وقد ظهرت فى ثمانينات القرن الماضى ــ داخل هذا الإطار ــ أعمال عظيمة مثل البعث لزولا التى صورت صراع عمال المناجم مع الرأسمالية التى تستغل كفاحهم وعرقهم فى كنز الثروات.. وحتى فى ميدان الدراما شاع هذا الاتجاه وتجمد فى مسرحية «النساجون» التى كتبها الألمانى جير هارت هوبتمان عام ١٨٩٢ وصور فيها ثورة النساجين ضد الهر دراسيجر صاحب مصانع القطن الذى يكنز أمواله من عرق النساجين أنفسهم ولا يدفع لهم من الأجور إلا مايكاد يقيم أودهم.

وفى داخل هذا الإطار - إطار الصراع بين الطبقة العاملة ومستغليها - أحدثت الطبيعية ومن بعدها الواقعية الاشتراكية (التى لاشك أنها كانت امتدادا لها) ثورة هائلة فى التكنيك الروائى وحتى المسرحى.. فلقد ألغت هذه النظرة الجديدة الاهتمام بالفرد كفرد وبصراعاته الداخلية أو صراعه مع القوى الكونية الشاملة كموضوع أساسى للفن وبدأت تهتم بدراسة الإنسان فى علاقته بالمجتمع.. واستتبع ذلك بالضرورة أن اختفى البطل المطلق من الحدث الروائى أو حتى المسرحى وعقدت البطولة للمجموع.. فأصبحت حركة الأحداث فى الرواية حركة جماعية وأصبح الفرد موجودا

فقط بصفتـه عضـوا فى الجماعـة. حتى أن زولا فى «البعث» أو هـوبتمان فى «النسـاجـون» يضيف إلى الحديث أو يسقط منـه الشخصيـات بما يخدم تطوره فقط.. فالشخصية الفردية لم تعـد مهمة.. وإنما حركة الجماعة هى الجوهر فى الحدث.

ولا أعـرف إن كان محمـد جلال نفســه قد تأثـر فى رواياتـه الأولى بهذا التراث الفكرى والفنى الذى بدأ فى الغرب منذ ثمانينات القرن الماضـى ولكن من الثـابت أن الخطـوط الأسـاسيـة لهذا التراث الـذى نبت ونما مع تطـور الفكـر الاشتراكى العـالمى.. كـانت واضحـة فى الأدب المصرى وفى النظـرة المصرية إلى وظيفة الأدب عندما بدأ محمـد جلال يكتب الرواية.. وكانت قمة تأثير محمـد جلال بهذا الاتجاه فى روايـة الـرصيف.ولكن محمد جـلال فى روايتـه الأولى حارة الطيب وإن كـان قـد تأثـر بهذا الفكر النقـدى والأدبى الذى أشـاعه الالتـزام بالواقعيـة الإشتراكية إلا أننـا نجد أنـه يحاول بقدر مايستطيع أن يخرج عن الإطـار الحرفى للواقعية الإشتراكيـة ليعطى روايته مفهوما إنسـانيا أكثر شمولا بقليل فنحن نراه ـ حتى فى هـذه الرواية الأولى يحاول التخلص من آثار التقاليد الأدبية والفنيـة الشائعة فى وقت كتابتها ـ لكى يـرسم صورة لها صفـة الشموليـة.. أو بالأحـرى يعطينا مجازا فنيـا يجسد صراع الإنسان مع القهر.

صحيح أن البطل فى حارة الطيب فنان ناشـىء موهوب ينتمى إلى الطبقة العاملة.. وصحيح أيضا أنه يقـوم بدور قيادى بين أبناء حارة الطيب ذاتها، فالجميع يحبونـه.. والجميع يعتمدون عليه ويشيدون بمروءتـه ورجولته، وهـو يقف إلى جـانب الجميع ويـدافـع عنهم ويعمل من أجلهم.. فهـو بهذا المعنى شخصيـة من الشخصيات البطـولية المثـاليـة التى تفنى فى خدمـة المجمـوع المهضوم الحق وتعتنق قضيتهم.. كل هـذا صحيح.. ولكن انتماء البطل إلى هذه البيئة الشعبيـة لايمثل إلا جانبا هامشيـا من جوانب التكوين الـروائى الذى رسمـه محمـد جلال.. يعطى ظـلا من الظـلال الكثيرة التى يسقطها الكـاتب على شخصيته من كل جـانب، لاسيما أننا بعـد الصفحات

الأولى نكتشف أن القضية ليست قضية حارة الطيب كوحدة اجتماعية داخلة فى صراع ما .. وإنما هى قضية الفنان نفسه.. ومحاولته لتحقيق ذاته من خلال فنه.. فالبطل كاتب مسرحي كتب رواية رائعة وضع فيها من نفسه ومن فنه الكثير.. ولكنه عندما يحاول إخراجها إلى النور من خلال قريب الفتاة التى يحبها ـ وهو صاحب إحدى المجلات الزائعة الصيت ـ يبدأ صراعه مع القوى التى تحاول أن تقهره.. ويتمثل القهر هنا فى محاولة هذه القوى منع الفنان ـ أو الإنسان بشكل عام ان شئت فما البطل هنا الاكناية شعرية للإنسان ـ من تحقيق التفاصيل التى يوردها الكاتب لتجسيد الصراع.. وهذا الانطباع النهائى هو فى الحقيقة الموضوع الأساسى للرواية: سعى الإنسان الدائب لتحقيق ذاته واصطدامه باستحالة هذا التحقيق فى مجتمع يقوم على الانتهازية والسطحية والروح التجارية التى تزن الأشياء بميزان المصلحة الشخصية وحدها.

وفى حارة الطيب تصبح تفاصيل أبناء الحارة وعلاقتهم بالبطل.. أو الممثلة المتسلطة على الصحافة والتى لا راد لكلمتها وعلاقتها بصاحب الجريدة.. أو انتهازية صاحب الجريدة ذاته ومحاولته لأن يرتقى إلى سلم المجد الشخصى بأن ينتحل لنفسه صفة مؤلف مسرحية البطل ويعرضها باسمه فى فرقة الممثلة التى تربطه بها علاقة صداقة وطيدة قائمة على المصلحة الشخصية وحدها.. تصبح هذه التفاصيل كلها جوانب من هذه المحاولة الدائبة من جانب البطل لأن يحقق ذاته فى مجتمع كل مافيه يقف ضد هذا التحقيق، فيماعدا طيبة أهل الحى وحدبهم عليه وإعجابهم به.. ولكن الصراع فى حارة الطيب ــ رغم شموليته ــ يتخذ بعدا واحدا وبالتالى تنتفى عنه صفة التعقيد والثراء.. فهو يكاد يكون صراعا بين قوى الخير المطلق متمثلة فى البطل وأخته وصديقته وأهل الحارة (كخلفية ضرورية لنقاء البطل) وقوى الشر المطلق (وهى القوى القادرة على القهر والتى تمارسه دون أن يختلج لها جفن) متمثلة فى صاحب الجريدة والممثلة ومن يدور فى فلكهما.. حتى إن الشخصيات نفسها لاتكاد تكتسى باللحم والدم

بقـدر مـاتشير إلى معان مجردة نستطيع أن نلخصهـا بشكل مجرد أيضـا فنجدها تمثل صراع البراءة المطلقـة مع التلوث المطلق.. ورغم هذا التبسيط الذى يتناول بـه، محمد جلال، الصراع فى روايته الأولى، إلا أننـا نجد أن هذا الصراع بين البراءة والقهـر، بين الطهـر وعـدم التلوث من نـاحيـة والقـوى الملوثة التى تحاول أن تقضى عليه وتسحقـه من ناحية أخرى، بين محاولة تحقيق الذات والاصطـدام باستحالـة هذا التحقيق، نجد أن هـذ ا الموضوع الأساسى سيصبح هـو الرؤية التـى تستمر فى روايات محمـد جلال حتى الملعونـة، وتطور هذه الـرؤية من التبسيط إلى التعقيد.. يمثل تطـور محمد جلال كروائى حتى تكتمل له أدواته الفنية فى الملعونة.

ومن أهم جوانب هـذه الرؤية التـى اتضحت بكاملها ــ ولكن فى شكلها المبسط ـ فى روايته الأولى حـارة الطيب هى العلاقة الوثيقـة التى تربط بين الحب وتحقيق الذات.. فـالحب عند محمد جـلال ليس إلا حالة مثـالية من الطهـارة والبراءة.. ولذلك فهـو يناقض الانهيـار الخلقى والإنسانى الـذى يفيض به العالم من حـول البطل أو الشخصيات المسحوقة (عنـدما تكون البطـولـة معقـودة للجماعـــة) كما هـو الحال (فى الـرصيف وفى الـــوهم والكهف).. ومن خلال الحب وحده بهذا المفهوم يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته أو على الأقل يجد من القوة مايعاونه على محاربة القهر والتغلب عليه فى النهـاية.. ويتطـور دور الحب عند محمـد جـلال عبر تاريخه الـروائى من البساطة إلى التعقيد وفق بساطة الـرؤية نفسها فى رواياته الأولى، وتعقيدها وثـرائهـا وشمـولها فى روايـاتــه الأخيرة.. ففى حـارة الطيب، والـرصيف، والقضبان نجـد أن علاقـة الحب بوصفهـا التجسيد المادى للطهـارة وعدم التلوث هى عـلاقة مثاليـة تقوم على النقاء المطلق الـذى لاتشويه شـائبة.. وهذا النقاء المطلق هو القوة المنـاقضة للتلوث والتى تمكن الشخصيات من مـواجهته دون أن ينهـار تكـاملها النفسى والأخـلاقى، بل هـى القـوة التى تحول دون هـذا الانهيـــار وبـالتـــالى فهى التى تمكن البطـل أو الأبطـال المسحـوقين من الانتصـار فى النهـايـة على القـــوى التى تـريـد قهـرهم..

وكتجسيد للنقاء الخالص فى هذه الروايات الثلاث الأولى أيضا يأخذ الحب النقى بين الرجل والمرأة أبعاد القانون الأخلاقى الصارم الذى يتناقض مع عوامل التحلل والانتهازية والاستغلال التى يحاربها البطل المثالى أو الأبطال المثاليون.. وهو فى تناقضه مع هذه العوامل جميعا يسقط عليها ضوءا يكشفها فى أكثر صورها بشاعة.

انظر مثلا إلى حب عكاشة ولواحظ فى الرصيف تجد أن لحظة إدراك هاتين الشخصيتين المسحوقتين من جيش الشحاذين الذين يعملون لحساب المعلمة حلوة للحب هى نفس لحظة إدركهما لذواتهما، وهى فى الوقت نفسه اللحظة التى يكتشفان فيها الوجه البشع للمعلمة حلوة وكل ماتمثله.. يقول عكاشة للواحظ لحظة اكتشافهما لحبهما:

— أنا أضايقت من الحياة اللى احنا عايشنها.. تعرف تقوليلى احنا بنعمل إيه.. احنا بنشحت.. بنستغل إيمان الناس الطيبين وحبهم للجنة عشان نأخذ فلوسهم.. وياريت بناخذها لنفسنا.. بنديها للست حلوة عشان تحوشها.. واحنا بناخذ إيه.. بناخذ الجوع والتعب والعيا.

فى القضبان ينتقل محمد جلال خطوة جديدة تمهد لمرحلته الثانية التى كتب فيها ثنائية الكهف والوهم ويطور فيها فنه إلى تعقيد أكثر فى الرؤية والتكنيك على السواء.. والرقعة الروائية فى القضبان أوسع بكثير من حارة الطيب والرصيف فإذا كانت حارة الطيب تتناول صراع بطل فرد مع مجموعة من الانتهازيين تعاونه قوى مساعدة مثل الأخت والحبيبة وأهل الحى كخلفية تؤمن به وتدعم كفاحه، وإذا كانت الرصيف تصور كفاح الشحاذين من اتباع المعلمة حلوة ضد استغلالها وتسلطها الذى يكاد يتخذ ابعادا شيطانية، فإن القضبان تصور صراع قرية بأكملها ضد الاقطاعى ذى الطموح السياسى أحمد بك.. ولا يمكن التطور فى سعة الرقعة فقط وإنما يتمثل أساسا فى قدرة محمد جلال على رسم عدد كبير من شخصيات القرية التى تقف طرفا فى هذا الصراع بشكل يحدد ملامح كل شخصية على حدة تحديدا واضحا ويعطيها تكاملا معينا بأن يسقط عليها الضوء من

أكثر من جانب فى وقت واحد: جذور مأساتها فى الماضى ثم انسحاقها فى الحاضر وخوفها من المستقبل الذى يحمل معه مزيدا من القهر مادام أحمد بك (أو باشا فيما بعد) متسلطا على أقدار القرية.

ومن الملاحظ أن الإطار الروائى العام فى القضبان هو الإطار نفسه الذى يختاره الكاتب لروايتيه السابقتين: الجماعة المسحوقة التى تواجه انتهازيا أو مستغلا واحدا تتمثل فيه جميع قوى القهر.. وهو فى هذه المرة يختار كخلفية لهذا الإطار ـ قطاع الفلاحين وصغار الموظفين فى البلدة فى صراعهم مع الاقطاعى.. ومع ملاحظة أن الاقطاعى هنا هو صورة الاقطاعى التقليدى ـ أى صورة من الشر الخالص يرسمها المؤلف بألوان ثقيلة ـ وأن الفلاحين وصغار العمال هم صورة للطيبة والسماحة التى تكاد تقترب من الخير المطلق.. مع ملاحظة هذا، إلا أننا نجد الكاتب يهتم لأول مرة بالمكونات النفسية المعقدة للشخصية فلا يرسمها فى بعد واحد ـ كما كان الحال فى روايتيه السابقتين: وإنما يعطيها أكثر من بعد.. خذ مثلا شخصية حنفى أفندى ملاحظ السكة الحديدية الذى خطف البك ابنته لكى يهديها لقمة سائغة للباشوات فى مصر..إن حنفى أفندى بدأ حياته عاملا فى السكة الحديدية ورقاه أحمد بك إلى أفندى وجعل منه موظفا صغيرا لكى يستطيع أن يطويه تحت جناحه..

ولكن احتفظ بتكامله ولم يسقط فى هوة الخنوع والذلة حتى كانت حادثة اختطاف ابنته ـ وهى حادثة سابقة على زمن الرواية ـ فنجده يتحول إلى إنسان متعدد الابعاد.. يقاوم ظلم أحمد بك وينسحق تحت وطأة مأساة اختطاف ابنته ـ وهى فى حقيقتها رمز لاستغلال أحمد بك للقرية للوصول إلى تحقيق أطماعه السياسية وتنمية ثروته ـ حتى اللحظة التى يصل فيها إلى قمة البطولة حتى ليكاد يرتفع إلى مصاف الأبطال التراجيديين عندما يذهب إلى المحطة يتفقدها بعد أن فشلت خطته فى نسف قطار السلطة ويجد أن الأوامر التى أعطاها أحمد بك للايقاع به خصيصا ـ تقضى باقتياد كل من يقترب من شريط السكة الحديدية إلى السجن ثم إلى

المحاكمة.. ويطلب حنفى أفندى من صديقه وابن بلدته حارس المحطة أن يقتاده إلى السجن طائعا مختارا ليواجه بعد ذلك مصيره فى الإعدام.. وهو عندما يذهب إلى الإعدام برأس مرفوع تقوم أمامنا صورة للضحية التراجيدية التى تبعث فى قلوبنا الشفقة من أجله والاجلال لقدره.. فنحن نشعر بقشعريرة الهيبة أمام تلك الشخصية التى رفعتها الالام إلى مصاف الأبطال العظام وهم يواجهون موتا عظيما.. ولأن محمد جلال قد استطاع أن يرسم الشخصية هنا بابعادها المتكاملة ويحافظ على تعاطفنا معها منذ البداية فإن مشهد إعدام حنفى أفندى فى ساحة القرية أمام أهله وأهلها على يد المأمور عميل الباشا وصنيعته سيظل واحدا من أروع المشاهد التى كتبت فى تاريخ الرواية المصرية.

وإلى جانب التعقيد فى رسم الشخصية يتطور محمد جلال فى القضبان أيضا إلى تعقيد فى التكنيك يصل إلى مرحلة معينة من النضج ومعه يتخذ عمله الروائى طابعا جديدا على الرواية المصرية برغم الإطار التقليدى القديم الذى يصور صراع الفلاحين مع الاقطاعى المتسلط.. يتمثل هذا التطور فى التكنيك فى استخدام الكاتب للموقف الدرامى البادىء من قمة الأزمة مباشرة والصاعد بعد ذلك إلى قمة التوتر.. وهو فى هذا يبتعد كثيرا عن الواقعية التقليدية التى تبدأ من الجذور الأولى للحكاية وتتطور بها خطوة خطوة إلى نهايتها.. فالقضبان تبدأ فى «منتصف الموقف على حد تعبير الناقد الرومانى القديم هوراس وليس فى بدايته.. والبدء فى «منتصف الموقف» أو فى قمة الأزمة هو البداية الدرامية الحقة.. تبدأ القضبان باكتشاف محاولة حنفى أفندى تدمير قطار السلطة بتحويل قضبان السكة الحديدية بحيث يخرج عليها القطار عند وصوله إلى المحطة.. وهى بداية درامية حقا تضعنا فى قلب الصراع نفسه وتثير لدينا العديد من التساؤلات التى تجيب عليها الرواية فيما بعد.. وهى بداية تفجر الموقف فى لقطة سريعة ولكنها مشحونة بالتوتر.. وتضع أطراف الصراع وجها لوجه: حنفى أفندى كتجسيد للانسحاق الذى تقع تحته القرية كلها فى مواجهة أحمد

باشا، تجسيد الظلم والقهر الذى تمارسه «السلطة» وحكم الباشاوات من عملاء الإنجليز.. ومن خصائص البداية الدرامية دائما أنها تثير الأسئلة بتفجيرها لعناصر الصراع الأساسى ثم تكون مهمة الروائى بعد ذلك أن يشبع هذه الرغبة فى الإجابة على الأسئلة التى يثيرها الموقف المتوتر فى البداية.. ولذلك فإن محمد جلال ـ بعد هذه البداية المشحونة ـ يعود بنا إلى الماضى بحيث يفسر لنا الأسباب التى جعلت حنفى أفندى يقدم على هذا التصرف، ومن خلال ذلك يصور لنا مأساة القرية بأكملها حتى يتطور بعد الأزمة إلى قمة التوتر فى مواجهة القرية لحوادث اختطاف البنات المتتالية وهى حوادث تعادل فى وظيفتها الدرامية حادثة اختطاف ابنة حنفى أفندى قبل بداية الرواية وتفسرها وتلقى عليها الضوء تدريجيا وباطراد حتى يصل الحدث إلى الذروة بإعدام حنفى أفندى ثم يتطور إلى المواجهة الكاملة بين القرية كمجموعة، وأحمد باشا.

والذى يهمنى هنا.. هو أن محمد جلال يستخدم لأول مرة فى القضبان تكنيكا جديدا سيطوره فيما بعد إلى أن يصل به إلى النضج الفنى، وهو تكنيك تقابل الأزمنة وتداخلها.. ولأن الإطار الأساسى فى القضبان مازال إطارا واقعيا، فهو لايسمح للكاتب باستخدام تداخل الأزمنة فى خلق العصور والمواقف داخل عقل الشخصية كما هو الحال فى المرحلة الأخيرة من عمل محمد جلال الروائى.. وإنما يخدم غرضا أساسيا هو إلقاء الضوء على كافة الأبعاد التى يفصح عليها الصراع الاجتماعى سواء فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل.. فالتقابل بين خطف ابنة حنفى أفندى فى الماضى وخطف بنات القرية فى الحاضر، وهو استخدام لتداخل الأزمنة الغرض منه إلقاء الضوء على الموقف ذاته وليس على الصراعات الداخلية فى الشخصية نفسها.. ولكنه تقابل وتداخل موجود على أى حال ويشير إلى استخدام أعقد منه فى المستقبل عندما يصبح الزمن نفسه عاملا من عوامل القهر الذى تقع تحته الشخصية كما هو الحال فى الملعونة.

وتضيف القضبان إلى التطور الروائى عند محمد جلال بعدا جديدا..

فهى تتحرك داخل الأطار التقليدى للواقعية الاشتراكية الذى يصور الصراع بين الطبقة المسحوقة ومن يسحقها أو يستغلها.. ولذلك فهى بالضرورة تقوم مثلها مثل روايته السابقة الرصيف على حركة المجموعة الداخلة كطرف فى الصراع.. ولكن هناك فرقا هاما فى استخدام محمد جلال للمجموعة فى الرصيف واستخدامه لها فى القضبان. ففى الأولى نجد أن المجموعة كتلة واحدة تتكون من عدة أفراد لاتكاد تدرك الخصائص النفسية التى تميز كل فرد منها على الآخرين.. والسبب فى ذلك الصراع نفسه فى الرصيف يظل صراعا يعبر فى المقام الأول عن فكرة فى رأس الكاتب يختار لها الموقف الذى يصلح أكثر من غيره لتوصيلها إلى القارىء.. ولم يعن الكاتب فى حرصه على توصيل الفكرة بتصوير جزئيات التجربة الإنسانية بوصفها انفعالا.. ولذلك فهو لم يستطع أن يرسم شخصية واحدة متكاملة فى الرصيف بل كانت كل شخصياته تقريبا تجسيدا لجوانب الفكرة أكثر منها شخصيات حية سواء كانت بين الشخصيات المسحوقة التى تفكر فى الثورة على سلطة المعلمة حلوة أو من الشخصيات التى تعاون المعلمة ذاتها فى ممارسة استغلالها لرعاياها من أعضاء مجتمع الشحاذين.

أما فى القضبان فإن الكاتب لا يغفل الخصائص المميزة لكل شخصية وحركتها النفسية الخاصة أثناء اهتمامه بحركة المجموعة ككل.. ولذلك نجد أن تطور المجموعة فى القضبان هو جماع لتطور الشخصيات الفردية.. كما أن تطور هذه الشخصيات وحركتها النفسية يثرى حركة المجموعة ويعمقها.. ولذلك فقد استطاع محمد جلال أن يخلق فى هذه الرواية داخل الإطار التقليدى للواقعية الاشتراكية، نماذج بشرية مميزة الملامح تستطيع أن تعيش بيننا حتى بعد أن ننسى «الحكاية» أو «الحدوتة» التى تتحرك داخلها.. نماذج مثل حنفى أفندى وشحاته وفوزية ابنة الباشا التى تتمرد على أبيها عندما تصل به الخسة إلى التفكير فى استخدامها للوصول إلى أهدافه وتحقيق أطماعه السياسية.. ورمضان صنيعة الباشا وخادمه المطيع.. وغيرهم.

وتصل هـذه الخطوة الجديـدة فى تصوير حـركة المجموعة مـن خلال حركة أفرادها (أو الـوصول من الخاص إلى العام) إلى قمة النضج التكنيكى داخل الإطار الواقعى فى الكهف والوهم عندما يتحرر محمد جلال تماما من فكرة وجود المستغل الواحد أو المتسلط الـواحد على أقدار المجموعة بصفته تجسيدا للقهر وممارسا له، تلك الشخصيـة التى كان يحتم وجودها التزام الكاتب بمنهج الـواقعية الاشتراكية، أما فى الكهف والوهــم فإن النظام العام الذى تتحـرك داخله الشخصيات هــو الذى يصبح ممثلا للقهـر أو الطرف الثانى من أطراف الصراع (إذا اعتبرت أن المجمـوعة هى الطرف الأول) وهو نظام سياسى معين بالـدرجة الأولى، والكهف هى المرحلة الأولى من مراحل صراع مجموعة من طلبة الجامعة ضد هذا النظام السياسى الذى لايقهرهم وحـدهم وإنما يقهر المجتمع بشكل عــام.. أما الـوهم فهى تتبع أقدار هـذه الشخصيـات التى رسمهـا الكـاتـب فى المرحلـة الأولى من الصراع عنـدمـا يخرجون إلى الحياة العامــة ويحتفظ منهم من يحتفظ بنقائه وثوريته (مثل صـابـر) ويسقط منهم من يسقط إمــا تحت وطأة الحاجة الملحــةإلى لقمــة العيش مثل «الغلبـان» الـذى يشتريه إحســان بـا لمال.. أو بسبب التردى فى هاوية التخلى عن المبادىء مثل منير.

وإلى جانب التطور الـذى حققه الكاتب فى تجسيد فكـرة القهر فى النظام السياسـى والاجتماعى نفسه وليس فى شخصية واحــدة مما يجعل التجربة أكثــر تعقيدا وأبعـد كثيرا عن التبسيط والمباشرة، فهــو يحقق أيضا خطـوة هامــة نحو النضج الفنى الكمال تتمثل فى رسم الشخصية فى أكثــر من بعد بطـريقــة تـؤكـد غـوص الكـاتب أكثـر وأكثـر فى أعماق النفس البشريــة، فالشخصيــة فى الكهف كما فى الوهم تتحـرك فى نطاق ثــلاث دوائر كل منها أكثر من الأخـرى، أولاها هـى حيــاة الشخصية وتكوينهـا المميز بما فى ذلك جذورهـا الماضية (مثل خضرة) أشجان، وثــانيتها هى: انتماؤها لمجمـوعة الأصدقاء القدامى من طلبة الجامعة الـذين يقاومون فساد الحكم، ثم هناك ثالثا حركتهـا فى الحياة العامة بعد التخرج (الـوهم) وبالتالى فإن حياة كل

شخصية تتشكل بانتمائها إلى مجموعة من المبادىء أو تخليها عنها أو تناقضها معها.. أى أن القضية العامة تصبح هى العامل المؤثر فى حياة الشخصية بل وتشكلها، كما أن طبيعة التكوين النفسى للشخصية تشكل نموذجا يفصح عن التناقضات داخل القضية العامة.. وبهذا يبتعد محمد جلال تماما عن تبسيط النفس البشرية. يرسمها فى علاقة اتفاق كامل أو تناقض كامل مع الواقع كما هو الحال فى الروايات السابقة (فيما عدا بعض شخصيات القضبان) ويصبح التكوين النفسى للشخصية فى الكهف والوهم معقدا بحيث يسمح بأكثر من تناقض داخل الشخصية والقضية العامة ذاتها (ربما فيما عدا صابر الذى يحتفظ بنقائه الثورى حتى النهاية).

الفترة الثانية :

والمرحلة الثانية التى بدأها محمد جلال بالانثى فى مناورة (١٩٧٠) تنتقل إلى أسلوب جديد فى تصوير التجربة الإنسانية إذ يبتعد تماما عن محاولة «تصوير الواقع » أو تحقيق «مشابهة الواقع» كما هو الحال فى الروايات السابقة، ويقترب كثيرا جدا من مفهوم الرواية الحديثة كما عرفها الغرب منذ جيمس جريس حتى الآن.

وإذا كان الكاتب يحاول فى الروايات الواقعية أن يصل إلى انطباع نهائى يشير إلى حقيقة أو حالة إنسانية عامة أكبر كثيرا من الواقع هى محاولة الانسان (أو الجماعة) تحقيق ذاته واصطدامه بعوامل القهر فهو يلتزم بخلفية اجتماعية محددة يستخدمها كإطار للصراع، ويحتفظ «بالحدوتة» أوالتتابع القصصى القائم على السببية والتطور المنطقى للزمن، أما فى «الانثى فى مناورة» فهو يحقق المفهوم الحديث للرواية بأن يقلل كثيرا من أهمية «الحدوتة» أو ـ بمعنى آخر ـ التطور المنطقى للقصة .. ويستتبع ذلك إلغاء عنصر التتابع الزمنى المنطقى والترتيب المنطقى للأحداث.. فعندما يلغى محمد جلال الخلفية الواقعية المحددة بإطار اجتماعى معين أو حالة من حالات القهر الاجتماعى أو السياسى ويصل بالحدث إلى آفاق أشمل

كثيرا من حدود الاطار الاجتماعي.. أفاق تشمل أزمة الانسان بشكل عام، يصبح كتحول تفاصيل الواقع عنده إلى انطباعات فى وعى الشخصية تكون فى جزئياتها المتناثرة خبرة إنسانية عامة.. وبالتالى فإن التكنيك الحديث الذى يستخدمه محمد جلال فى الانثى فى مناورة ويستكمله ويطوره حتى يصل به إلى النضج فى الملعونة يعتمد على تصوير الواقع كما ينطبع على وعى الشخصية وليس على تصوير الواقع كما هو.

ومع تعقد التكنيك فى هذه المرحلة تعقدت الرؤية عند محمد جلال رغم أن الاطار العام لها ظل كما هو.

تعتبر الأنثى فى مناورة الخطوة الأولى عند محمد جلال نحو تحقيق الرواية الحديثة، وهى تقوم على تكنيك تيار الشعور الذى ابتدعه جيمس جويس ودعمته الروائية فرجينيا وولوف.. وهذا النوع من الرواية الحديثة لايستمد وحدته الفنية من وحدة القصة وإنما من «وحدة الشعور» لدى الشخصية.. ولذلك فهى بالضرورة رواية شخصية واحدة.. وهذه الشخصة فى الأنثى هى التى تنظر طول الرواية إلى الواقع من خلال وعيها به.

وإذا كان الحب فى روايات محمد جلال الأولى هى وسيلة الشخصية لتحقيق ذاتها، فإن الحب فى الأنثى كما فى الملعونة يصبح الحدث الرئيسى الذى يجسد القهر.

والحب فى روايات محمد جلال هو الحالة الانسانية التى يستطيع الفرد ان يحتفظ فيها بكيانه وتكامله النفسى.. وفى الروايات الواقعية يصبح الحب بهذا المعنى هو العامل الذى يساعد الشخصية على التغلب على عوامل القهر، أما فى المرحلة الجديدة فالحب يفقد نقاءه عندما يصطدم بالخيانة، وينتج عن ذلك أن يتحلل التكامل النفسى للشخصية وينكسر متمثلا فى انهيار الحب نفسه، وعندئذ يصبح تحقيق الذات مستحيلا وتصبح الشخصية فريسة سهلة لعوامل القهر.

وبعد أن يجرب محمد جلال فى أسلوب تيار الوعى ليعطى هذه اللحظة

الشعورية المكثفة من الحياة الباطنية للشخصية، كما يجعل من الزمان والمكان مجرد اطارات للحدث النفسى الذى يدور داخل الشخصية ـ بعد أن يفعل هذا فى مرحلته الوسطى، نراه يعود مرة أخرى إلى حنينه القديم وهو الواقعية ـ ولكنها هذه المرة الواقعية الممتزجة بالرمزية.. أى مزج العالم الباطنى بالعالم الخارجى فى نسيج فريد من الخاص والعام يصبح عنده الشارع أو الحى استعارة لعالم بأسرة.. وهو هنا من خلال الميكروكوزم Micrcosm (العالم المصغر ـ الشارع الحارة ـ الحى الشعبى) يصل إلى الماكروكوزم Macrocosm الوطن ـ العالم ـ الكون).. ومن هنا كانت رواياته الأخيرة تمثل قمة النضج الفنى لدى الروائى خلال رحلته الطويلة من الواقعية الاشتراكية إلى الواقعية الصرفة إلى تيار الوعى إلى الواقعية الرمزية وتمثل «درب ابن برقوق» و«أيام المنيرة» نماذج لهذا المزج بين الحدث الواقعى والتركيبة الرمزية للواقع.. حيث يلعب المكان (الحارة ـ الحى الشعبى وهو دائما المنيرة) دور البطولة وليس مجرد دور المسرح أو الأرضية التى تجرى عليها الأحداث.. فالمكان ـ الحارة أو الحى ـ هو مصغر للعالم بأسره يحدد مصائر الشخصيات وأحيانا يفقدها براءتها نتيجة للقهر الواقع عليها ـ وهو فى هذه المرحلة فى معظمه قهر سياسى أكثر منه قهرا فلسفيا أو كونيا كما هو الحال فى مرحلته الوسطى التى حاول فيها التجريب فى اتجاه تيار الوعى.. أقول انه حالة من القهر السياسى النابع من تركيبة طبقية تعبر عنها تماما، تركيبة المنيرة كحى عريق من أحياء القاهرة.. وكمشهد من أهم مشاهد التطور الاجتماعى والطبقى والسياسى فى مصر على مر تاريخها الحديث والمعاصر. فحى المنيرة بدا كواحد من الأحياء الارستقراطية فى قاهرة الثلاثينات والأربعينات بتصور الباشوات وأفراد الطبقة الحاكمة.. ثم تحول عبر عملية التحول الاجتماعى التى أنتجتها ثورة ٢٣ يوليو بالتحديد إلى حى شعبى.. يفصل بينه وبين الحى الارستقراطى جاردن سيتى شارع واحد هو شارع القصر العينى.. وكان تدهور حى المنيرة ذاته من حى لساكنى القصور من أبناء

الارستقراطيـة وأبناء الطبقة الحاكمـة إلى حى للحوارى والمقـاهى الشعبية والحياة الشعبية المصرية بكل مفرداتها المعروفة يسكنه الكادحون من أبناء وبنات البلـد.. وتموج فيه الحركة الـوطنية بمظاهـر الاستغلال والظلم من جانب بعـض المتسلطين على أقدار الحارة (وهم فى معظم الأحيـان استعارة رمزية للقهر السياسى).

إن رحلة محمد جلال فى الرواية هى رحلـة توازى تطور الرواية المصرية نفسها من قوالبهـا المبسطة الأولى إلى قمة النضـج الفنى حين يصبح الشكل والمضمـون هما تعبير واحـد عن نسيج اجتماعى وإنسـانـى وسيـاسـى متكـامل، كما يجعل من الكـاتـب واحـدا من أهم روائيينـا المعـاصرين على مستوى مصر والعالم العربى.. وواحد من المبـدعين الذين استطاعوا ـ عبر رحلة طـويلة من الاصرار والمثـابرة والاخلاص لفن الـرواية ــ أن يمتلكوا أدواتهم الفنية باقتدار وأن يرتفعوا بـالرواية المصرية بعد نجيب محفوظ إلى آفـاق عـاليـة من النضـج الفنى والتأثير الاجتماعـى والسيـاسـى والتعبير الصـــادق عن هموم مجتمـع بأسره فى لحظة تاريخية تمثل نقطة تحـول مصيرية.

د. سمير سرحان

الهلالية

١

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

— لن أنتظر أكثر من ذلك.

قالها كمال وهو ينظر فى ساعتـه. قالت الأم وهى تضـع طبقا من الطعام الساخن على المائدة :

— لن يتأخر عمرو.

قال كمال :

— عمرو فنان .. لايهمه الزمن .. ولكن زمنى..

قال صبرى ساخرا :

— ساعتك تدق ذهبا فى زمن الفهلوة !

قال كمال وهو يملأ فمه بالطعام :

— ليس عندى وقت للكاتب التقدمى .

ضحك مجدى ، وكأنه قال بضحكته : صبرى يغير جلده هذه الأيام..

نظـر صبرى إلى مجدى يطلب منـه ألا يتحـدث عما أخبره من أنـه سيستقيل من الحزب.

توقف كمال عن الطعام فجأة : تذكر شيئا ينبغى أن يقوله لمجدى قال : ماذا قلت ؟ فكرت ؟

انفعل مجدى وقال موجها حديثه لأمه التى مازالت تعد المائدة :

— يريد أن يأخذ تحويشة العمر التى شقيت فيها فى بلاد الخليج ..

قال كمال فى لهجة جادة :

— لاأريد كلها .. أريد بعضـها.

ووجه حـديثه لأخيه صبرى فهو يعـرف أنه يقف فى صفه فى هـذا الأمر فصبرى لايحب فى مجدى حبـه لجمع المال .. فهـو يـرى أنه أكثـر ثقـافـة ومجدى أكثر ثراء فقال :

— كمال أفضل من الشركات التى تنصب على الناس .

قال مجدى فى ثقة :

— إلا صاحب الشركة التى أضع فيها مالى.

قال كمال :

— مجدى واهم.. أخبره حتى يستيقظ.

قام مجدى من مقعده الذى تعود أن يجلس عليه فى المائدة بجوار أمه وقال بلهجة قاطعة :

— لا مناقشة من فضلكم فى هذا الموضوع.

قال كمال فى خوف حقيقى على مال مجدى :

— أنا فى السوق .. وأعرف مركز صاحب الشركة .. أضاع معظم أمواله فى المضاربات فى البورصة .. وليس أمامه سوى أن يهرب.

ونظر إلى أمه وقال :

— اتكلم جد.

ألقى مجدى بالفوطة من يده وقال بعصبية لأمه :

— ابعدى كمال عنى .

— ستندم .

قال مجدى ساخرا :

— أحب الندم .

نظرت الأم إلى صورة الأب المعلقة فى صدر الحجرة وقالت :

— الله يرحمه .. كان يقول : كمال لايشبع.

ضحك مجدى. نظر كمال إلى نبيلة. يخاف أن تتأثر من الكلام قال :

— أخوك كمال أولى من الغريب.

قالت نبيلة فى حب :

— ماذا تريد ياكمال ؟

قال كمال :

— أروع أخت.

قال مجدى فى انفعال :

— لا تستخدم أسلوبك الناعم معها.. نبيلة مسافرة إلى باريس للدراسة وتحتاج إلى كل قرش.

قالت الأم ضاحكة :

— لافائدة فيها .. تعطيه آخر قرش فى حقيبتها بكلمة.

ضحكت نبيلة، وكأنها بضحكتها توافق أمها على ما قالت.

قال كمال :

— لاتخاف ياأمى لن آخذ منها شيئا سأعطيها كل ماتحتاجه لتسافر وتواجه غلاء باريس.

لا يحب صبرى تأثير كمال على نبيلة فقال ضاحكا :

— الفهلوة تلعب بكل الأوراق.

تضايق كمال. يحب أخته نبيلة ولايمكن أن يبتزها عاطفيا فقال :

— والتقدمية مسكينة لاتعرف اللعب بكل الأوراق!!

قال مجدى، ينتهز الفرصة ليضم صبرى له :

— صبرى خط مستقيم.

قال صبرى مستفزا :

— لا أسمح للرأسمالية الانتهازية بالحديث معى.

قال كمال وقد وشى صوته بشىء من الغضب :

— أنا انتهازى .. وأنتم شرفاء.

تدخلت الأم بلهجة قاطعة. تعرف أن مثل هذا الحوار ينتهى دائما بالشجار وقالت :

— كمال كل .. اليوم عيد.

ضحك كمال :

— من أجلك ياست الامارة سآكل .

ووضع فى فمه قطعة كبيرة من اللحم وقال :

— طعامك لذيذ ياأم الرجال.

ضحكت الأم سعيدة، تحب أن تسمع منه «أم الرجال».

وانفتح الباب ودخل عمرو وبعد أن أعطى لنبيلة باقة الورود التى يحملها ألقى بنفسه فى حضن أمه كما لو كان طفلا. شعر بضعفه. أراد أن يهرب منه. قال لكمال :

— دائما أنت تأكل.
ضحك كمال وهو يقول :
— حتى لاأزاحمك فى الألحان.
وفكر كمال ـ بعد أن قال عبارته فى أن يستغل الفرصة ويقول له:
هناك أخبار عن جليلة.. فجليلة ابنة الجيران التى أحبها عمرو فى صباه وترك أبوها حارة الهلالية حتى لايزوجها له. طلب منه أن يعرف أخبارها واستغل هذا.. عندما يحتاج إلى المال ويذهب إليه وينسج له بعض الأكاذيب ويأخذ مايريد. لن يحدثه الآن. ينفرد به بعيدا عن اخوته ويقول له شيئا من اكاذيبه ويأخذ شيئا من ماله. سيكون هذه المرة غير قليل.. فمال عمرو كثير وينفقه على الأغراب فى حفلاته الكثيرة.
استراب عمرو من نظرة كمال له. خاف أن يكون قد عرف ماجرى فى بيته فى الليلة الماضية. لايريد أن يفسد عليه احتفال الأسرة بيوم العيد. قفز إلى عينيه وجه الفتاة الشقراء التى قتلت فى بيته فقال لأمه :
— أريد أن آكل بسرعة فأنا مرهق.
توقع أن تقول له أمه بحنانها : حجرتك تنتظرك ولكنها قالت:
— من السهر .
وكأن صبرى أنقذه من الدفاع عن نفسه فقال :
— سمعتك فى الاذاعة تهاجم عبدالوهاب.. تتهمه بأنه عقبة أمام سيد درويش.
وقال كمال باسما :
— وأنت سيد درويش.
قالت نبيلة لعمرو فى لهجة جادة :
— أختلف معك يا أبيه.
يعرف عمرو أن أمه لاتحب نبرته الهجومية وخاصة عندما يتحدث عن محمد عبدالوهاب الذى تحب أغانيه القديمة وهو يشعر ـ الآن ـ بالاعياء ولايريد أن يدخل فى مثل هذه المناقشة. شعر كمال بأن عمرو لايريد أن يناقش نبيلة فقال :

— ليس هذا وقت الاختلاف ياأختى العزيزة دعينا نحتفل بوليمة أمنا ونأكل.

قال عمرو ضاحكا :

— أوافق كمال .. ونتفق على أن أمنا أجمل أم التى تحرص على هذه الوليمة فى كل عيد.

وقال كمال ضاحكا :

— ولا تسمح بأن يعكر مزاج الوليمة النساء.

ونظر إلى نبيلة قال :

— باستثناء اختنا نبيلة.

تنبهت إلى أن وجه عمرو شاحب وهو يأكل. شعرت بالخوف عليه أرادت أن تطمئن نفسها فقالت :

— مولد لحن جديد ؟

●

أوشك أن ينفجر عمرو بالبكاء. تمالك نفسه. قفز إلى رأسه ماجرى.. كان يفتح بيته لجلسة الأصدقاء المعتادة فى ليلة العيد.. وجاء الأصدقاء ومعارف الأصدقاء.. يحب الناس.. ولايرد أحدا.. أبصر وجوها غريبة.. اعتاد أن يرى فى كل ليلة وجوها لايعرفها.. ويسأل من هى ؟ يعرف انها معجبة بفنه.. جلس بينهم بعض الوقت..

قالت له فتاة شقراء بدلعها : أحبك ياعمرو.. رد عليها بابتسامة. تعود على سلوك بعض المعجبات الطائش.. شعر ـ فجأة ـ بأن اللحن الذى كان يبحث عنه — منذ أيام — أمام عينيه.. كما لو كان سمكة تتقافز إلى سطح البحر.. يسرع إلى حجرته ويصطادها قبل أن تهرب إلى أعماق بحره. قام دون أن يقول كلمة للفتاة الشقراء وأغلق الباب. واحتضنت أصابعه نغمات البيانو.

تراقص اللحن أمام عينيه كما لو كان عروس بحر لاتريد أن تسلم نفسها إليه إلا إذا دفع لها مهرها ذوبانا.. اعتصر نفسه.. وفى اللحظة التى شعر فيها بأنها قد استسلمت له وأوشك أن يمسكها بأصابعه سمع ،

طرقات على الباب مفزوعة.. كما لو أن شيئا ما قد فزع لأنه تجاسر على قدس أقداسها ولا مسها بأصابعه.

سمع صراخا. صرخت أنغامه. لن تفلت من بين أصابعه. استمر صراخ الباب. ماذا جرى ياسيدة؟! لم أقتل عروس البحر. سأزفها إلى عرش النغم فى قلوب الناس.. شعر للحظة كما لو أن الصراخ شىء من طقوس عروس البحر القادمة من ذوبانه لم يفتح الباب. خيل للمرأة التى تتولى رعايته أن فتح الباب وخروج عمرو بسرعة لن يجعل القاتل يهرب فقالت :

— أسرع ياسيدى.. قتلت.

ضحك عمرو.. أراد أن يقول لها : عروس البحر لم تقتل.. ولكن سيدة لم تكتف بصراخ كلماتها وعمرو يضحك. لطمت على خدها خرج عمرو لقاعة استقبال الناس. أبصر الشقراء التى قالت له بدلالها فى أول الليل : أحبك ياعمرو.. ملقاة على الأرض.. والقاعة خالية.

قال وهو لايصدق مايرى :

— لايمكن.

وعاد إلى حجرته وقد خيل له للحظة كما لو أن الذى قد حدث له علاقة بلحنه. نظر فى أوراقه الموسيقية. تصور أنه دون لحنه. لم يجد شيئا مدونا. حدث شىء لايعرفه. خرج إلى قاعة الاستقبال. يريد أن يعرف هذا الشىء. قال :

— من هذه المرأة ؟

لم تجب سيدة. بدت كما لو أنها كانت تنتظر خروج سيدها من حجرته ليتولاها الذهول. قال عمرو :

— مع من جاءت ؟

أبصرها قتيلة فقال :

— من قتلها ؟ تكلمى.

— أنا لا أقتل نملة.

— لم أقل انك قتلت نملة.

— رأيتك تحدثها ياسيدى.

— لم أحدثها.. دخلت حجرتى وعزفت على البيانو.

— أنا لم أعرفها.. لم أرها من قبل.

— كيف تدخلين بيتى واحدة لاتعرفينها ؟

جاءت مع الرجل الأسمر ..

— من هذا الرجل ؟

— أحد المعجبين بألحانك الذى جاء بالخروف المشوى.

— وأين الخروف ؟

— أكلوه.

— غريبة.

نظر إلى سيدة، كأنها ليست التى خدمته سنوات طويلة، امرأة غريبة وجدها فجأة فى بيته. تقف بجوار قتيلة. ولابد من أن لها علاقة بما حدث. بعد قليل سيجىء المحقق ويسأل ولابد من اعتراف. قال وهو يهز رأسه :

— أنت لاتعرفين القتيلة ؟

شعر بعد أن سألها سؤاله أن الأمر يحتاج إلى أن يعاين مسرح الجريمة. دار حول القتيلة. نظر حولها. اتجه إلى النافذة. أزاح الستار أبصر النهار قد طلع.

قال :

— حدثت الجريمة فى الفجر.

هزت سيدة رأسها. قال لها :

— أبصرت الرجل الأسمر.

— لم أره ياسيدى وهو يقتلها.. كنت فى المطبخ مشغولة بإعداد المائدة.

شعر بالارتياح. اعترفت بأن الرجل الأسمر هو الذى قتلها.

قال فى هدوء :

— وأنا ؟

— كنت فى حجرتك.

— كنت فى حجرتى ألحن.. فلماذا قتلها الرجل الأسمر ؟

— كان واضحا أنه يحبها ويغار عليها وكانت هى تثيره.

— يغار عليها وتثيره.
— نعم ياسيدى.
— ولابد أنه تضايق عندما قالت لى ـ فى أول الليل ـ أحبك ياأستاذ عمرو.
— لم اسمعها وهى تقول لك.
أمسكها من ذراعها وقال لها :
— قالت ياسيدة .. ولم أرد.
— صادق ياسيدى.
— وكان الرجل الأسمر مخمورا ففقد أعصابه وخنقها.
— نعم ياسيدى .
— والأصدقاء ومعارف الأصدقاء.. شاهدوه.
— كانت القاعة خالية.. ولم يكن هناك غير البقايا.
وكأنه المحقق الذكى قال بسرعة :
— دبر جريمته بذكاء. ولم يكن مخمورا. انتظر خروجهم وخنقها.
— نعم يا سيدى.
وانفعل فجأة:
— لماذا لم تخبرينى؟
— لأنك تغضب عندما اطرق الباب عليك وأنت تلحن.
— ولكنك طرقت..
— عندما ابصرته يفتح الباب ويخرج.
— تركت الرجل يهرب.
انفجرت بالبكاء. شعر بالاشفاق عليها قال فى صوت هادىء.
— لاداعى للبكاء. الشرطة ستبحث عنه وتجده.
ودخل حجرته. تذكر أنه يوم العيد وسيذهب إلى أمه. فتح الدولاب اختار بدلة يحب أن يرتديها فى الأعياد. نظر إلى البيانو. يعود اليه وينتهى من لحنه. تنبه إلى أن هناك قتيلة من البيت وهو يخاف من دم عصفورة شعر بالخوف. مد يده إلى زجاجة العطر التى اشترتها له المطربة صافيناز

التى يلحن لها الأغنيـة من بـاريس. صب شيئـا منهـا على يـديـه يغسلهما بالعطـر. يريد أن يخرج دون أن ينظـر إلى الراقـدة فى موتها. نظر حـوله فى الحجرة، كأنه يبحث عن مخرج. يفتح النافذة. يقفز إلى الحديقة. ضحك من نفسه. هل جن ؟

تذكـر انه ينبغى ابـلاغ الشرطة أدار قرص التليفـون. شعر بـالصداع. تنبـه إلى أن الشرطة لـو جاءت فلن تتركـه يذهب إلى أمـه ويأكل مع اخوتـه وجبة العيـد. ألقى السماعة مـن يده. خـرج مسرعا. أبصر سيدة قـد اخفت القتيلة بملاءة بيضاء. ارتاح لتصرفها. تفاجئه ـ دائـما ـ بأشياء لايتوقعها. قال لها بصوت خلا من التوتر :

— أطلبى الشرطة.. وإذا ارادونى فى شىء.. فأنا عند أمى فى الهلالية.

أغلق الباب خلفه بسرعـة دون أن يتيح لسيدة بأن تنطق بشىء. خيل له أنه يسمع صراخها وهو يركب عربته، كأنه يريد أن يهرب من صراخها أدار مـوسيقى.. كـانت صـاخبة. أشعـل سيجارة. ضحك وهـو يتـذكـر المرأة الشقراء وهى تقول له بدلالها : أحبك يـاعمرو، كأنه يتساءل بضحكته : هل رخص الحب إلى هــذا الحد ؟ سمع صـوت عــربـة شرطـة نجـدة. أوقف الموسيقى هل عرفوا ويلاحقونه ؟ نظر إلى نفسه فى مرآة العربة. قال ساخرا : سيقبضـون عليـك ياسى عمـرو ويشنقونك بتهمـة خنق امرأة لاتعـرفـها. قـالت لك أحبك. ورفع صـوته وقـال : هل تتأثـر هـذه المرأة مما فعلتـه فى النساء ؟

قهقـه. يتصور نفسـه شهـريـار. يقتل فى كل ليلـة امرأة.. وهـذه المرأة الشقـراء شهر زاد جـاءت لتنتقم.. تـذكر جليلـة. وجد نفسـه يصرخ : لماذا تركتنى ياجليلة ؟ أجبرها أبـوها على ترك الحارة.. فلماذا لم ترسل لى مجرد رسالـة ؟ هل سيلتقى ـ فجأة ـ بها فى هذا الزمن الـذى يعادى الحب ؟ هل سيعيدها له طائره الذى هجر عشه يـوما ما ؟ تذكر ان أخته أحضرت عنوان جليلة. عرفته من صديقـة لها. اندهش من نفسه. كيف لم يسافر حتى الآن إلى باريس ليبحث عنهـا ويلقاها ويمـوت عشقا على صدرها ؟ يـذهب إليها الآن. يطير إلى باريس.. ولكن عنوانها يخفيه فى درج مكتبه..

يعود إلى المعادى بسرعة.. تذكر وهو يتجه إلى المعادى أن هناك جريمة والشرطة لابد أن تكون قد وصلت ودخول الحمام ليس كخروجه. أبصر المراكب الشراعية تملأ النيل. يركب قاربا وحده. أوقف عربته. نزل إلى الشاطىء. أبصر مركبا كبيرا يزدحم بالشباب والأطفال يوشك أن يبحر. وجد نفسه يركب معهم.

انطلق الشباب. يطبلون ويغنون ويرقصون. أراد أن يندمج معهم وكما لو أن العطر الذى يعطر يديه يمنعه من الاندماج معهم. غمس يديه فى النيل. غسل يديه بالماء. أبصر صبية تمد يدها بمنديلها. ابتسم للصبية دون أن يتناول المنديل منها. وجد الصبية تجفف يديه بمنديلها بشىء من الحنان. تذكر حنان جليلة. اهتز جسد الصبية بالايقاع الساخن. اندفعت ترقص.

تذكر جليلة عندما رقصت فى الحارة فى فرح مجدى وأراد أن يرقص معها ولكن خجله من أمه منعه من أن يشاركها الرقص. وجد نفسه يقف. جذب عصا من يد أحدهم واندفع يرقص أمام الصبية. يعرفونه صفقوا له بحرارة. شعر كما لو أنه يتحرر من الزمن. عاد إلى صباه وهم يغنون أغنية لحنها فى صدر شبابه. فرح وهم يرقصون حوله ويغنونها.. وكانت الصبية صاحبة أعلى الأصوات. وغنت طفلة.. شعر بأن المستقبل بين أصابعه.. وكأنه يكتشف شيئا جديدا.. احتضن الشمس بعينيه.. لم يغمضهما.. كأنه يحتضن أمون فى هذه المراكب الشراعية التى تتراقص حوله وتغنى أغنيته على صفحة النيل الخالد.. أمسك بأصابعه الحياة.. لن يجعلها تفلت منه.. شعر بأنه طائر يحلق. يحط على الشاطىء. بعد قليل.. ووصل المركب إلى الشاطىء. انتهت الرحلة. أراد أن يلحق بالصبية يسألها عن اسمها. لم يجدها. ذابت فى زحام العيد. أراد أن يمشى.. يصل إلى بيته على قدميه.. ولكنه شعر بالجوع فركب عربته وذهب إلى بيت أمه مسرعا.

●

تنبه عمرو وأمه تقول لنبيلة بغضب : اتركى عمرو يانبيلة.

يعرف عمرو أن أمه تقول هذا لنبيلة لأن سرحانه يعنى أنه فى حالة ولادة فنية ولاتريد لأخته أن تشغله بحديثها.

ابتسم. شعر برغبة فى أن يتحدث ويقول لها أن سرحانه لاعلاقة له بلحنه الجديد.. ويحكى حكاية المرأة الشقراء التى خنقها الرجل الأسمر لأنها قالت : أحبك.. يحكيها بطريقة ساخرة كما لو كانت قد حدثت لانسان آخر.. ويضحك .. ليضحكوا وهو يقول :

— أحكى لكم حكاية عبثية.

سمع طرقات على الباب.

قال ساخرا :

— لاتفتحوا الباب حتى لايسمعنا أحد ونحن نضحك!!

ولكن أمه اسرعت إلى الباب. لاتريد أن يفسد أحد اجتماع العائلة فى يوم العيد. فتحت الباب. ابصرت ضابط شرطة. قالت مستنكرة :

— شرطة .. لابد أنكم قد اخطأتم .. تقصدون بيتا آخر.

قال الضابط برقته :

— نريد الأستاذ عمرو.

أغلقت الباب بسرعة وهى تقول :

— غير موجود !

أسرع عمرو والذى كان يقف خلفها وفتح الباب وقال :

— أنا موجود.

وخاف أن يقول الضابط شيئا فقال بسرعة :

— سأذهب معك ياحضرة الضابط.

صرخت نبيلة. صاحت الأم معنفة نبيلة :

— ماذا جرى لك ؟

اضطرب عمرو وجد نفسه يقول :

— لا علاقة لى بالقتيلة يانبيلة !

قال كمال :

— قتيلة وشرطة تريد عمرو.. لابد انها النكتة العبثية التى كان عمرو سيقولها لنا.

خاف عمرو أن يقول كمال شيئا يضطره ـ الآن ـ إلى أن يحكى ماجرى

فى بيته. وقد تملكته رغبة فى عدم الحديث فقال فى شىء من الغضب ليمنعه من الكلام :

ـــ أنا لاأقول النكت ياسى كمال.

قالت الأم وقد تنبهت إلى وجود أكثر من جندى :

ـــ ماهى الحكاية ياحضرة الضابط؟

قال عمرو بسرعة قبل أن يتكلم الضابط :

ـــ يريدون معلومات.. مجرد معلومات.. سأخبرهم وأعود ولن أتأخر.

قالت نبيلة وهى مخنوقة بدموعها :

ـــ سأذهب معك.

وقال صبرى :

ـــ أنا الذى سأذهب.

قالت الأم بلهجة حازمة :

ـــ سيذهب مجدى.

وعربة الشرطة تترك حارة الهلالية نظر عمرو إلى نافذة بيت جليلة التى كانت تسكنه. شعر بأن قلبه يرفرف بالحب.. مازال حبه لجليلة مشتعلا فى داخله.. بدا حبه لها ـ فى هذه اللحظة ـــ كما لو انه قد وضعه فى محارة وأخفاه فى عيون الزمن. ابتسم. لو شاهدته فى عربة شرطة لصرخت من النافذة.

قال يحدث نفسه :

ـــ الحب لايموت.

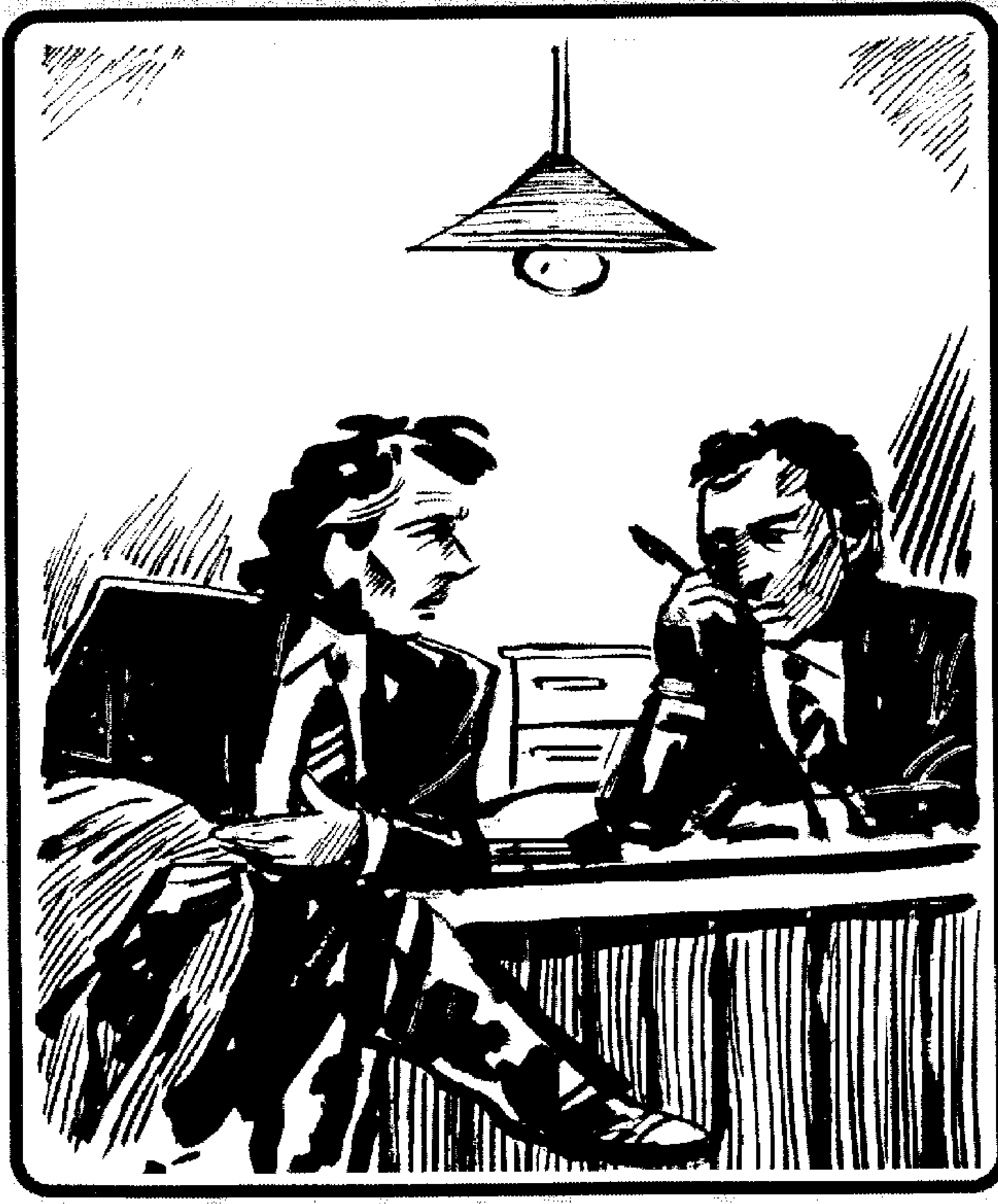
قال الضابط باسما وقد تصور أنه يحدثه :

ـــ الفضل لأغانيك يا أستاذ عمرو.

ضحك عمرو سعيدا. طافت فى عينيه وجه الطفلة التى غنت أغنيته. فى المركب فى الصباح.

الهلالية ٣

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

قال المحقق :

ـــ قبضنا على ..

ودون أن يدع عمرو المحقق يكمل عبارته قال :

ـــ القاتل ..

هز المحقق رأسه فى ثقة . قال عمرو فى شىء من الفرح :

ـــ الرجل الأسمر ..

وكأن المحقق لم يستمع إلى عمرو .. قال :

ـــ مفاجأة

ـــ لم يغادر البلد

ـــ سيدة .. القاتلة.

ـــ مديرة بيتى القاتلة؟.. لابد أنك تقول نكتة ..

ـــ أقول الجد ..

ـــ لا يمكن ..

ـــ اعترفت بعد أن انكرت ..

قال عمرو فى اندهاش :

ـــ اعترفت بعد أن انكرت!!

ـــ هذا ثابت فى أوراق التحقيق .. ووقعت عليه ..

ـــ تسخر منى يا حضرة المحقق .. لقد كنت فى الفيلا أثناء وقوع الجريمة وأعرف التفاصيل..

قال المحقق :

ـــ عندما هبط اللحن عليك .. ودخلت إلى حجرتك .. وجلست إلى البيانو.. وانشغلت سيدة بضيوفك ـ كالعادة ـ وكانت بينهم المرأة الشقراء التى غازلتك غزلا فاضحا .. فغضب الرجل الأسمر الذى جاء معها وأحضر

الخروف المشوى الذى أكله الضيوف وانتظر خروجهم وخنقها ..

قال عمرو :

— وصرخت سيدة . وخرجت من حجرتى . ولم أجد الرجل الأسمر.

قال المحقق :

— كان مخمورا ..

قال عمرو منفعلا :

— تظاهر بأنه مخمور .. ولكنه كان متيقظا .. دبر كل شيء بوعى وهرب.

ابتسم المحقق، وكأنه قال بابتسامته : لم يعد هذا يهم الآن.

وكأنه فهم عمرو ابتسامة المحقق فقال فى نبرة مرتفعة :

— لا .. الرجل الأسمر هو القاتل ..

— أستاذ عمرو . أمامنا الآن اعتراف يقول أن سيدة هى القاتلة.. والاعتراف سيد الأدلة .. كما تعرف من دراستك فى كلية الحقوق .. فقد كنا زميلين..

— كيف تعترف بجريمة لم ترتكبها؟

— كانت هى التى تتحرك على مسرح الجريمة ..

— وأنا ..

— فى صومعتك تلحن ..

— وخرجت بسرعة

— ولكن الجريمة كانت قد تمت ..

— ماذا تريد أن تقول؟

قال المحقق فى ود:

— عمرو .. أنا أعرف المفاجأة صعبة عليك وأنت انسان مرهف..

— من أجل هذا لا أسمح بأن يفلت المجرم الحقيقى من حبل المشنقة ليلتف حول رقبة برىء..

قال المحقق ضاحكا :

— لا مصلحة لنا فى شنق الأبرياء..

قال عمرو فى استرابة :

— شىء ما حدث ..

قال المحقق باسما :

— كل ما فعلناه هو أننا قلنا لها : هناك جريمة قتل ولابد من قاتل.. ولم يكن فى الفيلا سوى أنت والأستاذ عمرو .. القاتل إما أنت وإما الأستاذ عمرو؟ وانهارت وقالت: سأقول الحقيقة.. وعدلت عن حكاية الرجل الأسمر وقالت: أنا القاتلة..

قال عمرو فى نبرة هادئة:

— واعترفت على نفسها ..

وفجأة انفعل وقال :

— لا .. القاتل هو الرجل الأسمر وهو طليق الآن .. ولابد من أن تقبضوا عليه قبل أن يترك البلد. أشك فى أنه ليس مصريا.. هذه جريمة غريبة..

— أستاذ عمرو ..

— لماذا خنقها فى بيتى؟

وضرب بيده على المكتب وقال :

— هذا ظلم لامرأة بريئة ..

...

لا يمكن أن تكون سيدة التى صاغت احساسها بالحانى قاتلة.. تلتف أصابعها حول رقبة امرأة لا تعرفها وتكتم أنفاسها وهى تسمع لحنى؟.. مستحيل.

وقال ساخرا :

— وهل فى لحنى ما أثار شيطانها وجعلها تخنق امرأة كل جريمتها انها قالت لى : أحبك..؟

وضحك وكأنه يقول بضحكته العالية: وهل يلعب معى شيطانها لعبته الآثمة وتخنقنى أنا الآخر وأنا فى أمان أنغامى؟

ووجد نفسه يقول فى فزع :

— لا .. لا يمكن أن تفعل سيدة هذا .. سيدة طيبة أعطتنى كل حياتها.

قال المحقق بسرعة :

— أنت ذكرت السبب ..

— أى سبب ؟

— أعطتك كل حياتها ..

— تقتل امرأة لمجرد أن قالت لى وهى مخمورة : أحبك..

— لم تكن مجرد امرأة عابرة

— تراها للمرة الأولى

— أخفت عنك انها تعرفها ..

— سيدة لا تخفى عنى شيئا ..

— أتعرف أنها تحبك إلى حد الموت .. عندما سئلت فى التحقيق: لو استغنى عنك عمرو قالت: أقتل نفسى!

— ابنة بلد .. تصون العشرة .. وتبالغ فى التعبير عن مشاعرها أحيانا.

— اشعرتك فى يوم من الأيام أنها تحبك .. وتغار عليك من أية امرأة تقترب منك.

— لا ..

— مثل سيدة التى تحب حبا عاجزا .. تضع نفسها فى صندوق مغلق..

وقال عمرو ساخرا:

— وفتحت صندوقها المغلق..

— القتيلة من النوع العنكبوتى الخطير .. لذا عندما شعرت بأنها تنسج خيوطها حولك وأنك لن تنجو منها..

قال بسخرية:

— خنقتها قبل أن تختفى ..

— الحب العاجز .. عندما يشعر بالخطر يدمر حتى لو كان نفسه

— تدمر نفسها

— تذكر كيف دخلت بيتك .. ؟

قال عمرو :

— أذكر أنها استـوقفتني على باب بيتي فى الهلالية وقـالت لى: أنا أحب الحانك وأريد أن أكون فى خدمة صاحبها .. لفت نظرى شخصيتها الآمرة.

— ودخلت حياتك منذ ربع قرن ..

قال عمرو :

— وعرفت بعـد ذلك أن الفن فوضـى منظمة .. نظمت حياتـى وأبدعت أجمل الحانى..

اشعل سيجارة وقال :

— اعترف لك .. لـولاهـا ما كنت قـد لحنت كل هـذه الألحان وأصبحت عمرو الملحن المشهور.

— تطعمك ما تشـاء وتختار لك ملابسك وتتحكم فى مزاجك .. وعنـدما يجىء لك الفن تغلق عليك حجرتك وتجلس على بـابها لتكون أول من تسمع صوت مولودك .. ادخلتك قفصها الحريرى!

— ...

— وأصبحت لا ترى الدنيا إلا من خلال ثقب بابها ..

وأطفأ السيجارة التى كان قد أشعلها والمحقق يقول :

— وكل الأدلة التى فى أيدينا ـ حتى الآن ـ تقول انها القاتلة.

وكأنه سمع شيئا لم يسمعـه من قبل وهو يقول له انها القـاتلة.. شعر كما لـو أن حبل المشنقة سيلتف حـول نغماته .. لن يستطيع أن يلحن بعـد ذلك .. كيف يلحن وسيدة لا تجلس خارج حجرته؟

وانفجر بالبكاء كما لو كان طفلا سيفقد أمه.

قال المحقق فى شىء من التعاطف : ..

— أعرفك صـاحب قلب رقيق منذ أيـام زمالتنـا فى الحقوق .. ولكن إلى هذا الحد؟

وابتلع عمرو دموعه وهو يقول مقاطعا :

— اريد أن أراها ..

ضغط المحقق على الجرس . جاءت سيـدة . أبصر عمرو سيـدة أخرى.. شابة.. بها جمال لم يره من قبل .

وعندما وقعت نظرته فى نظرتها قال لها :

— ما هذا الذى .. وقبل أن يكمل سؤاله قالت بسرعة :

— قلت الحقيقة

— أنت القاتلة ؟

خفضت نظرتها وقالت :

— نعم أنا القاتلة !!

— جننت يا سيدة

— أنا عاقلة وأنت أول من يعرف.

— وما قلته لى من أنك لا تعرفين المرأة الشقراء.

— اعرفها واسمها فتونة وهى من النوع الخطر الذى ينسج شباكه حول الرجل..

— والرجل الأسمر الذى انتظر خروج الضيوف..

— كنت أكذب ..

— أنت لا تكذبين ..

نظرت اليه ، وكأنها قالت بنظرتها : أنا كذبت لكى أحميك..

— أنت خائفة على ..

— أنت لا علاقة لك بما جرى .

— أنا لن يحدث لى أى شىء .. واعترافك هذا سيجعل القاتل الحقيقى يهرب.. تتسترين على الذى خنق المرأة..

أوشكت أن تقول : تستحق القتل ولكنها قالت:

— لا يوجد قاتل غيرى .

انفعل :

— كذب .. كذب يا سيدة .

أوشكت أن تنهار .. لا تقوى — فى هذه اللحظة — على أن ترى عمرو منفعلا قالت بسرعة:

— أرجوك يا حضرة المحقق .

ضغط المحقق على الجرس . جاء الحارس . أشار إليه بأن يعيدها للزنزانة.

وبعد أن خرجت سيدة . شعر عمرو بأنه لابد أن يتكلم .. يقول شيئا قال:

— ليست هذه سيدة التى أعرفها .

أوشك المحقق أن يقول : أبصرتها بلا قناع ولكنه قال:

— السجن

— فى عينيها ..

أكمل المحقق عبارة عمرو : فقال بريق الحب.

— أشك فى أننى قد عرفت المرأة .

— لم تعرف المرأة .. لأن سيدة كانت بوابة النساء إليك.. تسمح بمرور ما تريد.

— ولكنى سافرت كثيرا ..

— ولم تعرف أن لسيدة التى اعترضتك فى حارة الهلالية نفس بشرية لها كل هذه السراديب.

قال ـ فجأة ـ فى نبرة قاطعة :

— أنا مصر على أن سيدة ليست القاتلة ..

— على كل حال التحقيق لم ينته .. وسنستفيد با لمعلومات التى ادليت بها فى التحقيق وسنستدعى الذين حضروا الحفلة.

الهلالية ٣

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

عرفت الأم من مجدى ما قاله عمرو للمحقق فقالت فى انفعال:

— تدافع عن قاتلة ؟

أوشك أن يقول لها : سيدة ليست قاتلة .. ولكن نظرته وقعت فى نظرتها كما لو كان خوفه من أمه الذى تربى معها منذ أن كان طفلا تفجر اللحظة .. فتوقفت كلماته فى حلقه المر .. أراد أن يهرب من نظرتها .. لم يجد سوى الجدار أمامه لينظر إليه فبدأ كطفل مذنب!

وكأنها انتهزت فرصة شعوره بالذنب .. لتعيده لسيطرتها . لقد رسمت له حياته منذ صغره. أرادت أن يكون فنانا فكان فنانا.. ولكنه فى الأيام الأخيرة شعرت بأن قمر عمرها قد خرج عن مداره فقالت كما لو كانت تعنف نفسها :

— تريد أن يفرجوا عنها ..

ولم يسمح لها قلب الأم لتقول له : ليقبضوا عليك ..

نظر عمرو إلى أخته التى تؤيده فى موقفه من سيدة، يستلهم من نظرتها الشجاعة ليقول:

— علمتنى ألا أكون ظالما ..

— وتظلم نفسك ؟

وكأنه يحدث نفسه :

— أظلم نفسى لو تركت حبل المشنقة يلتف حول عنقه ..

— أعرف سيدة جيدا .. ليست بريئة كما تتصور .. ذئبة فى ثوب حمل..

طاف فى عينيه وجه سيدة وهى تقول له أمام زميله المحقق : لا يوجد قاتل غيرى .. فقال بانفعاله:

— كذب .. كذب ..

— ما هو الكذب يا عمرو ؟

خافت نبيلة أن تتصور أن عمرو قد تجاوز حدود الخطاب معهافقالت :

— عمرو لا يقصد ..
قالت الأم منفعلة ..
شعر عمرو بالتعاطف مع أخته فقال :
— من حقها أن تتكلم ..
— وكانت النتيجة أن تأخذك عربة الشرطة وتراك حارة الهلالية ..
وضربت خدها بيدها :
— ابن زهيرة !!
واغرورقت عيناها بالدموع ..

ومست دموع أمه قلبه .. لا يذكر أنه قد أبصر دموعا فى عينيها منذ فترة طويلة.. شعر بحزنه، وحزنه كانت دمعة فرت من عينيه .. جرحت دمعتها قلبه .. دموعها كانت سببا فى دمعته .. أسرعت تبتلع دموعها .. لتتوقف دمعته .. توقفت دمعته .. ضحكت أمه .. ضحك عمرو ..

وكأن الأم تعلن عن انتصارها بقولها :
— هذه الحفلات ينبغى أن تنتهى !

لا تريد نبيلة لدموع أمها أن تجعله يستسلم .. كل ما جرى له كان سببه استسلامه لها. ابتسمت عندما سمعته يقول فى نبرة خفيضة:
— لا استطيع أن أعيش بدون ناس.
قالت نبيلة تشجعه ليرفع صوته:
— الناس حياة عمرو ..

شعرت الأم بأنه لا حاجة لمزيد من الكلام. قررت أن تنتهى هذه الحفلات الصاخبة وسينفذ ابنها قرارها.

احتوت وجهه بنظرتها . أبصرته شاحبا . لن يسترد نفسه الا إذا دخل حجرته ونام على السرير . نظرت إلى باب حجرته المغلق كأنها تقول بنظرتها : ادخل يا عمرو لتستريح..

توقع عمرو أن تقول أمه له: أترك فيللا المعادى وعد إلى حارة الهلالية ولكنه لن يعود لمجرد أن أمه تريد هذا .. فهز رأسه كما لو كان يقول بهزة رأسه: سأعود عندما أريد.

فهمت الأم أنه لا يريد أن يدخل حجرته التى أعدتها له فنظرت إليه

بحنانها ، كأنها تقول بحنانها : من أجل عيون أمك ..

فجر حنان أمه فى داخله رغبته فى أن يبكى على صدرها ويحدثها عن عذاباته. يريد أن يرتاح على صدرها ويتكلم وتسمعه.. لم يعد أحد يسمعه الآن.

شعرت برغبته فى الحديث . ستمنعه من الكلام ليدخل حجرته ويستلق على سريره ..وتغطيه كما كانت تفعل فى الماضى .. قرأت فى تعبيرات وجهه أنه يريد أن يتحدث عن المستقبل.. فانفعلت قائلة:

— ستحدثنى عن الحلم؟

انفجر عمرو .. ضرب زجاج المنضدة التى أمامه بيده، وكأن صوته يتناثر وهو يقول:

— لابد أن يعود ..

انكسر الزجاج .. سال الدم من أصابعه، كأن أمه قد شلت فى جلستها .. صرخت أخته وهى تقول:

— أصابعك يا عمرو ..

وأمسكت يده بكل خوفها عليه . توقف الدم . لفت أصابعه بمنديلها الحريرى .. شعرت الأم بالراحة لما فعلته نبيلة. اكتشفت أنها عاجزة عن أن تمد يدها لتطمئن على أصابعه. دم قلبها سال مع أصابع ابنها. نظرت فى أصابعها ورث منها أصابعها وحبه للعزف على البيانو .. وجدت نفسها تقول:

— الحلم فى أصابعك!.

ضحك . قال بضحكة حزينة:

— ملأت الدنيا بنغم الانتصار واستيقظت لأجد كل شىء حولى مهزوما !.

شعر كما لو كان يغرق .. مد يده .. أمسك يد أمه وهو يقول فى صوت اختنق بالتأثر:

— أنا مهزوم يا أمى .. أدفن هزيمتى كل ليلة فى الناس..

احتضنت يده بيديها .. شعر بأنها قد أخطأت كان ينبغى أن تسيطر

على أعصابها ولا تنفعل.. عمرو مازال طفلاً.. تأسره لمسة حنان.. ستأخذه على صدرها وتحكى له ما كانت تحكيه له فى الماضى.. يحب سماع حكاياتها..

شعرت نبيلة بالضيق لأن عمرو قال لامها: أنا مهزوم يا أمى. تذكرت أن مجدى ترك التدريس فقالت وكأنها تلقى قنبلة:

— مجدى استقال ..

توقعت أن تثور أمها .. ولكن لم يظهر على وجه الأم أى انفعال كما لو أن مجدى الذى استقال من الجامعة ليس ابنها..

تعرف نبيلة أن أمها لا تحب زوجته سهام فقالت:

— قالت لى سهام وهى تدخن الشيشة: لسنا فى حاجة إلى العمل يا حبيبتى .. المال هو الذى يعمل بالنيابة عنا!

أحست بعد أن قالت هذا أن أمها تريد منها أن تكف عن الحديث ولكنها شعرت برغبة لم تستطع أن تقاومها فى الاستمرار فى الحديث. فقالت موجهة حديثها إلى عمرو:

— الهانم تنام حتى الظهر ومجدى يلعب الشطرنج.

قال عمرو فى شىء من الحزن:

— مهزوم آخر فى عائلة زهيرة ..

مسها ذكر «عائلة زهيرة» وكما لو أن لا أحد يهزم فى عائلة زهيرة فقالت:

— لم يخبرنى مجدى ..

ومادام مجدى لم يخبرها فان شيئا من هذا لم يحدث .. وعلى الحديث فى هذا الموضوع أن يتوقف .. ولكن عمرو قال:

— مجنون .. لا شىء مضمون فى هذا العالم .. أخرج من حجرتى لأجد قتيلة فى بيتى!

توترت الأم . نبيلة المسئولة عن أن عمرو قال عبارته الأخيرة. لا تريد أن تسمع هذه السيرة. نظرت إليها فى غضب. ابتلعت ابنتها ريقها وقفت الأم. وقف عمرو، كأن عمرو خجل من استسلامه لرغبة أمه فلم ينظر إلى نبيلة وهو يدخل حجرته.

أرادت الأم أن تقول: أنا فرحانة .. ولكنها قالت:

— حجرتك فرحانة ..

شعر عمـرو بالراحـة بعد أن دخل حجرته. يـريد أن تتركه أمـه لينفرد بنفسه. أبصرها تعد السرير كما لـو كانت تفعل أيام زمان. ابتسم. لن تتركه حتى ينـام وتحكى له حكـاية. ألقى بنفســه على السرير. بمجـرد أن لامس جسده فـراشـه.. شعر بالضيق لأنها مـازالت تعامله كطفل.. جـذب الغطاء على رأسـه. فهمت أمه أنه مرهق ويريد أن تتركه لينام قالت وهى تخرج:

— قلبى كان يحدثنى ..

انتظر حتى أغلقت الباب . قام وأشعل النور. دارت نظرته فى الحجرة لم يدخلهـا منذ زمن. شهـدت ميلاد موهبتـه وأبدع فيهـا أجمل ألحانه. أبصر بيانو أمه. مر عليه بأصابعـه التى لم تجرح. أوصته ألا يفرط فيه. تحبه أمه إلى حد أنها لا تريـد أن يتنفس سوى أنفاسها.. تخنقه بحبها وهـو يريد أن يكـون عصفورا طليقـا يلتقط شيئا من هنـا ومن هنـاك ليصنع فنا تحبـه الناس.. الحب هو الحرية..

نظـر فى المرآة التى طـالما نظـر فيهـا وهـو شـاب. ابتسم كأنــه يقـول بابتسامته: أنـا حر .. ولكنه أبصر نظرته الحزينة فى عينيـه، كأنها تقول له: لم تعد حرا .. هناك امـرأة فى الزنزانة تكبل حريتك.. تسـاءل بصمته: ما هو الفـارق بين سيدة وأمـه؟ تسجنه هى الأخـرى بحبها.. دائما هــو محـاصر بالحب القاتل.

قفز إلى عينيـه وجه فتونة المرأة الشقـراء وهى تقول له بـدلعها : أحبك يـاعمرو .. تـذكـرها وهى ملقـاة على الأرض قتيلـة تحسس أصابعـه التى جرحت. شعر بالألم. ما جدوى الحياة فى دنيا بها كل هذا العبث؟ كان الموت يتربص بها على بعد خطـوات منها. أطفأ النـور. امتلأ رأســه بصراخ سيدة: قتيلة يـا سيدى.. أشعل النور. وصله صـوت احتفال الناس بمولـد السيدة زينب. فتح النافذة. يتنفس نسمة المولد الطـرية. تذكر الليلة الكبيرة.. الليلة الكبيرة يـا عم .. اسـع .. اسع .. حمص . حمص .. يـريـد أن يأكل الحمص الشـامى بالشطة ..

أسرع يرتدى ملابسه. يذهب إلى المولد ويذوب فى الناس.. لا يذكر أن رأى الناس فى حالة عشق مثلما يراهم فى ليلة المولد الكبيرة.. تملكه الشوق لأن يصبح قطرة فى بحر عشقهم.. كأن المصرى قد اخترع المولد ليفصح عن عشقه. مدد يا أم هاشم.. طالما فجر هذا العشق فى نفسه ألحانا.. تذكر أيام شبابه عندما كان لا تفوته ليلة من ليالى المولد.. يرتوى من وجد الناس .. ويصبح موجة فى بحر عشقهم وتتراقص نغماته فى داخله ليحصدها ـ بعد ذلك ـ فنا يحبه الناس. لم يكن ينام فى ليالى المولد.. خرج من حجرته .. يريد لخطواته أن تسرع فى دروب المنيرة.. يلقى بنفسه.. فى مولد السيدة زينب يعوض ليالى حرمانه.. ولكن خطواته تتراقص.. كأنه فوجىء بالزحام.. أصبح لا يطيق الزحام.. جسده المرهق لم يعد يحتمل زحام الاجساد .. يكاد أن يختنق.. يعود إلى حجرته .. ولكنه يمشى.. كأنه يمشى فى غابة انطلقت غرائزها.. ينظر فى الوجوه حوله.. يبحث عن البراءة التى يعرفها فى وجوه الطيبين .. لا يرى سوى البلادة والبلاهة .. هل تغير الناس أم هو الذى تغير؟ لم يعد يرى الطيبة .. لوثة الليل الصاخب .. والصراع الذى أجبره ـ فى بعض اللحظات ـ على أن يتخلى عن شىء أصيل فيه ويصبح ذئبا وإلا أكلته الذئاب، وشهريار الذى يقتل امرأة كل ليلة ليعثر على نغمة شاردة قد لا يجدها فى الصباح .. ضغط أحدهم على جرح يده .. شعر بالألم صرخ ظنه البعض أنه مجذوب من مجاذيب السيدة زينب .. ارتاح لصراخه .. عرفه البعض .. لم يعرفه البعض .. ما جدوى الشهرة فى دنيا اختلطت فيها الأشياء؟

هاجمه التعب كما لم يهاجمه من قبل. سمع موالا. أيقظ فى داخله حبه القديم، وكأن نجاته من الزحام الذى يكاد يخنقه أن يجد من يغنى مواله الحزين .. يريد أن يجلس إلى جواره ويستريح فى نغماته ألقى بنفسه فى بحر الناس يسبح فى اتجاه الذى يغنى الموال .. تذكر جليلة .. كانت قد تحب الموال .. كأنه سيعثر عليها .. اندفع .. ولكن الناس قد تحولوا إلى سد .. وليس أمامه سوى أن يغرق فى بحرهم .. وقاربه الوحيد .. أن يعود إلى بيت أمه وينام.

هل خان حبه ؟!

الهلالية

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

أيقظ صبرى عمرو وهو يقول ، كأنه يعلن عن بطولته:

ـــ سقط من أجلك ..

فزع عمرو ونظرته تقع على جريدة الناس التى نشرت بالبنط العريض:

من القاتل .. عمرو أم سيدة؟!

كان فى رأيه بقايا حلم .. أمسكوه فى مولد السيدة وهو يهرب عائدا إلى بيته .. عرفه البعض .. وحاصروه .. وأجروا له محاكمة .. لقد خانهم .. أعطوه من حبهم الكثير .. فأعطاهم القليل .. وفى الأيام الأخيرة .. لم يعد يعطيهم شيئا يروى ظمأهم .. تركهم عطشى فى صحراء حياتهم .. وغرق فى نزواته .. وجاء وقت الحساب ودفع الثمن .. والثمن رأسه .. ونسجوا من حبالهم مشنقة!

وقبل أن تلتف حبال المشنقة حول رقبته صرخ فيهم: لست مسئولا.. سرقوا جذوتى .. وأغرقونى فى ظلام الهزيمة .. كل شىء حولى كان مهزوما فكيف أكون أنا المنتصر الوحيد؟

قالوا له : أعطيناك حبنا .. فلم تحافظ عليه .. فرط فيه .. كان سيضىء لك الظلام .. قدرك أن تبدد الظلام أمامنا بأغنيتك .. ونحن تائهون فى دروب الضياع وتقودنا بأغنيتك نحتمل معاناة الطريق..

قال : لست نبيا ..

قالوا : أنت فنان ..

سالت دموعه على وجنتيه ..

قالوا لا تصدقوا دموعه .. دموع شيطان.

ارتفعت أصواتهم عاصفة.

قال : لا تغضبوا .. سأعترف لكم .. خنتكم .. فرطت فى حبكم.. بددت هذا الذى جمعتموه من رحيق نفوسكم .. ولدى الشجاعة ـ الآن أن أعترف وأقول لكم: أنا قاتل أغنيتكم .. ولست قاتل المرأة..

وسمع أصواتا تزأر وهى تقول: وما هو الفارق بين المرأة والأغنية؟ أنت قاتل..

وقبل أن يلتف حبل المشنقة حـول عنقه فتح عينيـه على صـوت صبرى. أراد أن يقـول له: انقـذنى من حبل المشنقة.. ولكنــه أبصر جريـدة الناس فى يـد صـبرى فقال فى ضـحكة فزعة بعد أن قرأ المانشيت المثير:

— أنا القاتل ؟!

قال صبرى غاضبا :

— لا يعـرفون أقـدار الناس .. كـان ينبغى مجاملتى .. فأنا واحـد من رجال الحزب الذى يصدر هذه الجريدة..

— لا أحد يجامل أحدا فى هذا الزمن ..

— على الأقل يجاملون الفنان الذى أثرى وجـدان الناس الذين يزعمون أنهم يتبنون مصـالحهم .. كانوا على الأقل لا يجرون وراء الاثارة..

شعر عمرو برغبة فى أن يفر من جلده وصبرى يقول:

— لمصلحة من يحطمونك؟

قال عمرو وهو يقفز من فراشه:

— لا أحد يستطيع أن يحطمنى ..

ونظر فى المرآة وقال :

— أنا عمرو ..

قال صبرى وعمرو يرتدى ملابسه :

— أين أنت ذاهب ؟

— أنا حر ..

— أمك ذهبت إلى قريبنا على هاشم المحامى تستشيره..

قال عمرو غاضبا :

— لا تريدون أن يصدقوا أننى لست متهما!

وخيل لعمرو أن صبرى يريد أن يمنعه مـن الخروج .. فدفعه بيده وهو يخرج قائلا:

— استطيع أن أذهب إلى أى مكان ..

ونزل بسرعة على السلم وكأنه يريد أن يثبت لنفسه السريع على درجات السلم بأنه حر..

نظر إلى نافذة البيت الذى كانت تسكنـه جليلة .. يأخذ نظرة منه قبل أن

يترك الحارة.. خيل لـه أنه يسمع ضحكـة جليلة .. ضحكتهـا كانت ينبـوع فنه.. أسرع بعـربته كما لـو كان يهرب بضحكتهـا بعيدا عـن عيون الحارة التي كانت تحسده على حبها له دون كل فتيان الحارة ..

طاف في رأسـه حلمه عندمـا حاكمـوه في مولد السيـدة.. كان ينبغي أن يحاكمهم ويقـول لهم: أخـذوا منى الهامى .. ووجد نفسـه يصرخ ويقـول: لا لم يأخـذوا جليلـة منى . ضحكتهـا معى .. يـذهب إلى أرض لا تسرق ضحكة جليلة.. كانت تحب أن تسمعه يغنـى لها: أنا هويته وانتهيت .. فراح يغنيها لها ..

سالت دموعه على وجنتيه وهـو يقول: أحبه حتى في المنام.. وبعده عنى يا نـاس حرام .. وصل إلى صحـراء الأهرام وكما لـو كانت تجلـس بجواره واختفت.. خرج من العربة.. يبحث عنها في الصحراء . يسأل عنها الرمال .. تنبـه إلى جنونـه .. ضحك سمع ضحكتها وجدها تـلاعبه.. أمسكهـا حتى لاتهرب منـه.. تجلس بجواره يحدثهـا.. يحكى لها عن أشواقـه ويبكى على صدرها.. شعر بالعطش .. غـرست له ضحكتها.. أصبحت ينبوعا.. شرب.. ارتوى .

قال لها : وضحكتها تترقرق حوله : شهر يارى

— يبحث عنك في كل ليلة ..

— في كل النسـاء ..

— وفي كل المدن ..

— ولا تجدني ..

— وأحترق كفتى في أسطورة حاول أن يفك قميص حبيبته فتحول إلى رماد.. وأقوم في الليلة التي بعدها وقد رشتنى بماء الحياة وأطعمتنى رغيف خبزها..

وكان الأمر قـد اختلط عليه وأصبحت عشتار فقال: متى عـدت يا بهجة البشر من العالم السفلي؟

قالت بدلا لها : سمعت غناء حبيبى ..

قال لخوفه : لن تتركيني ..

— ولن تتحول إلى رماد مرة أخرى ..

— وستجدنى ..
— مختبئة ..
— فى أنفاسى ..
— لتغنى ..
— أغنيتى التى لم أبدعها بعد ..

ورشته بماء الينبوع .. قام ليرقص .. لم تدعه يرقص وحده رقصت معه نام على صدرها فنامت على كتفه .. صار فتى فى أسطورة وهى ربة القمر قرر ألا ينتهى الزمن ويسرق القمر..

قالت له : سأبقى هنا لأسقى العطشى ..

لم يستطع أن يوقف الزمن ولكنه سرق القمر .. يحمله فى صدره. يضعه فى عينيه. يغطيه برموشه .. وعندما يشتاق اليه يخرجه من بين رموشه ويقبله ..

يريد أن يناطح الدنيا . جرى بعربته . شعر بحاجته لانسان ليحكى له. لم يجد سوى صافيناز. تستطيع أن تفهمه. شىء من جنون جليلة فى روحها. دفع باب حديقتها.. أبصرها تقف أمامه وتقول:

— كنت ذاهبة اليك .. وعرفت أنك عند أمك فى الهلالية .. ما هذا الجنون؟

فرح سيحدثها عن جنونه فى الصحراء .. عندما تحولت ضحكة جليلة إلى ينبوع ماء وسرق القمر وأخفاه برموش عينيه.. ولكنه شعر بالاغتمام عندما عرف أنها تعنى بالجنون مانشرته صحف الصباح عنه.. فضحك.. وكأنه قال بضحكته: الجنون أن نتكلم ـ الآن ـ ياصاف .

فهمت صافيناز أنه لايريد أن يتكلم.. أخذته من يده كما لو كان طفلها.. تسقيه شيئا من أمومتها.. وجد عمرو أمومة جليلة.. ارتاح كأنه اكتشف اللحظة: لماذا تزوجها؟ قالت صافيناز:

— نعلن عن زواجنا..

كان يتصور أنه لم يعلن عن زواجهما خوفا على مشاعر سيدة.. فلقد كان يريد أن يهيىء سيدة لاستقبال زوجة تشاركها إدارة حياته.. ولكنه اكتشف الآن أنه كان لايريد أن يجرح حبه لجليلة.. سمع صاف تقول:

— أريد أن أتحدى هذا الجنون بإعلان زواجنا الآن..

طاف فى رأسه ماقاله له المحقق: أتعرف أن سيدة تحبك إلى حد الموت.. فوجد نفسه يقول بانفعال: لا..

شعرت بحريقة.. أخذته فى صدرها.. تطفىء حريقه.. استسلم يريد أن يتطهر من حزن إنسان تنتحر سيدة من أجله.. شعر بعجزه.. قفز من فراشها ارتدى ملابسه بسرعة، كأنه يخفى عجزه عن عينيها بارتداء ملابسه.. ارتبكت صاق.. أول مرة يشعر بالعجز أمام حبها.. قالت بحنانها:

قال منفعلا:

— لم يحدث شىء لى.

قالت، وكأنه لم يقل شيئا:

— كان فوق الطاقة.

قال كأنه يعلن عن عجزه:

— يتآمرون على ياصاق..

وألقى بنفسه فى صدرها وانفجر باكيا.. وكأنها سمعته يقول: يقتلوننى

قالت كما لو كانت تدافع عن حبها:

— الحب لا يقتل

— أنا أحب كل الناس..

اغتاظت، كما لو كانت تلومه:

— وفتحت بيتك لهم..

ترك صدرها وقال فى غضب:

— وقتل أحدهم امرأة

— واعترفت سيدة بأنها القاتلة.

وكأنه سمعها تقول: وانتهى الأمر فقال:

— لم ينته الأمر يا صاق.. بدأت مأساتى.

أوشكت أن تقول له: لا أحد يعترف على نفسه دون أن يكون قاتلا.. ولكنها سمعته كما لو كان يحدث نفسه:

— تقتلنى سيدة خلجة..

●

ودخل كمال وألقى بـالجرائد التى أثارت عـاصفة على عمـرو.. أمامهما وهو يقول :

— مؤامرة..

وكأنه لا يعرف أن هناك مؤامرة عليه قال:

— أية مؤامرة ؟

— محاولة اغتيالك ..

— اغتيالى ..

— يريدون القضاء عليك ..

قال عمرو منفعلا وهو يرى العطف فى عينى صافى:

— لا أحد يستطيع القضاء على عمرو

قال كمال :

— وهذا ما جعلنى أجىء اليك هنا ..

تنبه عمرو إلى أن أحدا لا يعرف أنه فى فيللا صافيناز فقال:

— كيف عرفت أننى هنا؟

قال كمال فى شىء من الزهو:

— أنت تعرف أن شيئا لا يخفى عن كمال ..

نظـر عمرو إلى الجرائد . أبصر صـوره وقـرأ عناوين تتهمـه بأنـه قتل وقدم سيدة لحبل المشنقة بدلا منه .. فقال بلا انفعال:

— سأرفع قضية عليهم وألقنهم درسا لن ينسوه ..

قال كمال :

— هذه خطوة تالية

قالت صافيناز :

— وما هى الخطوة الأولى ؟

قال كمال :

— نسيطر على هذه العاصفة المجنونة . يحولون القضية إلى قضية رأى عام ..

قال عمرو :

— ولكن الناس تحبنا ..

قال كمال لعمرو وكأنه يقول حكمة :
— العقل الجمعى للناس يقسو .. والقضاءيتأثر ..
قال عمرو وكأنه يدفع الموت عن نفسه :
— ولكن سيدة أعترفت
— كل شىء يمكن أن يتغير
قال عمرو فى اهتمام :
— ماذا تقصد ؟
قال كمال ليضخم له الأمر :
— هناك من يريد أن يقضى عليك .. يزيحك من أمامه وانتهز الفرصة..
قالت صافيناز وهى تحتوى الجرائد بنظرة:
— أنا مع كمال ..
فطن عمرو إلى أن كمالا يريد مالا فقال :
— لن أدفع مليما ..
قالت صافيناز فى حماس :
— كم يلزمك يا كمال ؟
قال كمال لعمرو :
— ولا تنسى أن هذه المعلومات مصدرها كتبة النيابة ..
— لن أرشى أحدا ..
قالت صافيناز :
— ليس من حقك أن تتركهم يتآمرون عليك .. أنت ملك الناس..
قفز إلى رأس عمرو وجـه الرجل الأسمر الذى لمحـه مبتسما وهو يدخل حجرته ليلحن فقال :
— الرجل الأسمر المبتسم ..
قال كمال :
— الرجل الأسمر .. ذكرته سيـدة فى أوراق التحقيق .. ولكن مالبث أن عدلت عن اتهامه ..
قال عمرو :
— القاتل ..

قال كمال بثقة :

— نعثر عليه ..

قال عمرو :

— أريد أن أعرف كل شيء عن هذا الرجل الأسمر الغامض الذى اختار بيتى دون أن اعرفه وجاء بهذه المرأة الشقراء لخنقها ويختفى..

قالت صافيناز :

— تحل لنا هذا اللغز ..

قال عمرو :

— ساعطيك ما تريد ..

قالت صافيناز :

— سأتولى أنا الأمر . كم يكفيك ؟

قال عمرو :

— لابد أن يفرج عن سيدة التى اعترفت كذبا وهى متصورة أنها بهذا تنقذنى من الوقوف فى قفص الاتهام..

وصمت للحظة وقال كأنه يحدث نفسه :

— وأدخلتنى فى قفص أخطـــر من قفص السجن وسجنت روحى فى عذاب ان تظلم انسانا يحبك..

تضايقت صافيناز . قال عمرو وهو يخرج دفتر شيكاته :

— لا يمكن أن تشنق سيدة ..

شعرت صافيناز بأن كلمات عمرو تلتف حول عنقها فابتلعت ريقها..

قال كمال وقد وجد فرصته :

— سيكلفنا الكثير ..

وقع عمرو شيكا وناوله لكمال وهو يقول :

— شيك على بياض .

تراجعت صافيناز . لن تعطى كمالا شيئا . تملكتها رغبة فى ألا يصل كمال إلى الرجل الأسمر وتشنق سيدة التى جعلت عمرو يعجز عن فعل الحب معها!!

الهلالية



— طار

وقبل أن يقول كمال شيئا آخر قال عمرو بسرعة :

— الرجل الأسمر ..

— من بيتك للطائرة !

— رجل مهم لهذا الحد !!

قال كمال ساخرا :

— حارس رجل مهم

— لماذا خنقها ؟

— لم يخنقها !

وكأنه عثر على دليل براءة سيدة فقال :

— سيدة بريئة

وكأن عمرو لم يقل شيئا . قال كمال :

— قتلها با لمخدر وليس بالخنق !

ثم قال بنصف ضحكة :

— يبدو أن التعليمات كانت الموت خنقا .. لأن الموت كان انتقاما نسائيا!!

وأشعل كمال سيجارا وهو يقول :

— خنقت بعد أن ماتت !

وأوشك عمرو أن يقول له : عندما خنقت كانت قد ماتت طبيا.. ولكنه قال منفعلا :

— لا يهمنى الخنق أو المخدر .. ولكن لماذا حدث هذا فى بيتى؟

— صدفة ..

— صدفة ..

أعطاها جرعة من المخدر تكفى لقتلها .. وكان من الممكن أن تموت فى أى مكان .. والصدفة جعلتها تموت فى فيللتك..

تحرك ذهن عمرو وقال :

— لا .. كان يعرف متى سيحدث المخدر تأثيره .. وأنها ستموت فى بيتى.

وارتفع صوته :

— لماذا ؟

— المرأة الشقراء تحبك وطلبت من الرجل المهم أن تزورك وهو لا يرفض لها طلبا .. فأعطاها طائرته الخاصة وجاء معها حارسه الخاص..

— لن أعد أفهم شيئا.

— سأشرح لك الأمر .. الرجل يحبها والمرأة تحبك .. وزجته ابنة عمه وأم أولاده .. وهى امرأة غيور لا تتصور أن تشاركها امرأة فى زوجها.

قال عمرو بسرعة :

— أمرت حارس زوجها بالتخلص منها ..

قال كمال :

— وهو خبير فى القتل .. متخصص فى قتل من تريد سيدته التخلص منه .. تعرف أن هذا النوع من النساء كالنحلة تقتل الذكر بعد أن ينتهى من مهمته!!

قال عمرو وقد نفد صبره :

— قتلها خنقا حتى يرضى سيدته ..

— بدأنا الفهم ..

قال عمرو ساخرا :

— وكان الموت فى رحلة الحب ..

ثم قال كما لو كان يحدث نفسه :

— ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب؟

وكأن شيئا لسعه فى داخله : لقد خنت .. وجد نفسه يزعق

— لم أخن فنى ..

وصمت، وكأنه يقول بصمتـه : أحمله أمانة على ظهرى وأصعـد به كل يوم الجبل!!

وفجأة تصور ان شقيقه على علاقة بالرجل المهم فقال :

— كيف عرفت هذا ؟

وجـد كمال فرصتـه . يريـد أن يقع شقيقـه بأهميته فضحك ضحكـة غامضـة.

قال عمرو وقد تأكد أنه على علاقة بجهة عليا:

— عرفت ؟

قال كمال باسما وقد شعر بأهميته :

— تقرير أمنى سرى.

— سيقدم للنيابة.

— لن يقدم.

زعق عمرو :

— لماذا ؟

— لاترفع صوتك.. قالوا لى .

وصمت.

— ماذا قالوا لك ؟

انفعل عمرو :

— ماأسمه ؟

تمتم كمال بشىء. خيل له أنه قال : الدهشـان فقال بسرعة :

— ماذا قلت ؟ الدهشـان.

أوشك أن يقول لـه على سبيل المزاح : نعم ولكن نظرته وقعت فى نظـرته فشعر بالخوف فقال له :

— الدهشان.. من أين جئت بهذا الاسم؟

— أنت نطقت به.

— أنا ؟

أوشك كمال أن يقول له : سمعت خطأ.. ولكنه قال :

— أنت متعب الأعصاب .. ومن الأفضل أن.

قاطعه عمرو منفعلا :

— أنا أعصابى قوية ولست فى حاجة إلى الراحة.

— أنا قلت لك أنه رجل الصفقات الخطرة.

أوشك أن يقول عمرو : والدهشان من عائلة تتاجر فى السلاح.. ولكنه قال فى نبرة ساخرة :

— وأنا صفقة.

وطاف برأسه عندما التقى به فى حفلة خاصة وهزمه فى المرأة التى يحبها فقال :

— ينتقم منى ؟

أوشك كمال أن يقول له : أنت تتوهم أشياء لاأساس لها ولكنه قال ليجعله يهدأ فهو يعرف حبه للحديث عن غزواته النسائية :

— أنت دون جوان كبير.. تدفع ثمن الحب.

ابتسم عمرو وهو يقول :

— هل عرفت مافعله أخوك به ؟

ابتسم كمال ليوهم عمرو بأنه يعرف وكما لوأنه تنبه إلى أن الابتسامة لاتكفى فقال :

— شهرتك فى الحب عبرت الحدود.

ضحك عمرو سعيدا :

— الطاووس.

بدا على وجه كمال عدم الفهم فقال :

— يبدو أنك لاتعرف.. سأحكى لك.. دعانى احد الأصدقاء لحفل خاص.. وكان الدهشان الصغير من بين المدعوين.. ودخل كالطاووس فى صحبة فتاة ملكة جمال وسعدت الفتاة بوجودى وأبدت اهتماما بحديثى تضايق ولم يخف ضيقه.. وعندما عرف اننى من الصعيد قال نكتة على الصعايدة وجلجلت ضحكته.. وتنبهت إلى أن الفتاة لم تضحك.. شعرت بجدعنتها.. ذكرتنى بجليلة فأمسكت العود ورحت اغنى لها كما لو كنت

أغنى لجليلـة.. تأثرت الفتـاة إلى حد أن الـدموع قـد سالت على وجنتيهـا.. اغتـاظ ووقف يريـد أن يترك الحفل.. رفضت الفتـاة أن تترك الحفل وذهب وحده.. وقال لى أحد الأصدقاء : لن يغفر لك هذا.

وقهقه وهو يقول :

— كان ينبغي أن يرسل لى حارسه الأسمر ليخنقنى!!

قال كمال فى نبرة جادة :

— أنت مشهور وهم لايقتلون من فى شهرتك.. لايريدون وجع الرأس.

تضايق عمـرو من كلامه.. أوشك أن يقول لـه : لاأحد يستطيع أن يقتل عمرو ولكنه قال :

— أنت جبان.

يهرب كمال من الجد إلى الهزل كعادتـه عندمـا يريـد أن يسطح الأمور فقال :

— أحب الجبنة البيضاء بالسمن البلدى.

وضحك وكأنه قال نكتة.

— اتكلم جد ياكمال.

قال كمال فى جد :

— لافـرق بين الجد والهزل فى هذه الأيـام.. نحن فى زمن اختلطت فيـه الأوراق.

— هناك فرق.

وقال منفعلا :

— لايمكن أن يقتل سيدة لأن دموع فتاته سالت على وجنتيها.

قال كمال فى محاولة لإنهاء الحديث فى هذا الأمر :

— هناك جريمة قتل.. ولابد من قاتل.

وكأن عمرو ينتزع من كمال اعترافا ببراءة سيده :

— ولكنك قلت لى أن الفتاة الشقراء قد ماتت با لمخدر.

— فى التقرير الأمنى.

— وأوراق التحقيق.

— تقول انها قد خنقت.. ولايستطيع أحد أن يغير فى أوراق.

قاطعه فى غضب :

— كذب .

قال كمال فى هدوء :

— لاشىء يدعو للقلق.

استفزته عبارة كمال فضرب المنضدة التى أمامه بقبضة يده وهو يقول :

— هذا قضاء على.

وكأن كمال اكتشف شيئا، لم يكن يعرفه من قبل. قال :

— أنت تحب.

توقفت كلمة « سيدة » على شفتيها وعمرو ينفعل :

— أنا أحب فنى.. والفن طهارة والظلم دنس ولوأغمضت عينى عن هذا الظلم ستظل روحى ملوثة.. غارقة فى دم سيده.

وأختنقت عبارة «ويموت فنى» فى حلقه.

وضح شىء من عدم الفهم على وجه كمال فقال عمرو :

— أنت لاتفهم.. والذين يجيدون ترتيب الأوراق ليبدو الظلم عدلا لايفهمون شيئا.

قال كمال بلهجة حازمة :

— أفهم أن تسافر الآن إلى باريس.. يريدون تكريمك اعترافا بفضلك على الأغنية العربية.

قال عمرو ساخرا :

— وهنا يكرموننى بذبحى على صفحات الجرائد.

— أصول اللعبة ياحبيبى.

وأوشك أن يقول : وهل هذا الطاووس فى قدرته أن يلعب كل هذا اللعب؟ ولكنه قال :

— سأتحدى هذه اللعبة.

قال كمال وقد بدا أنه قد نفد صبره :

— لقد طلبت منى أن أعرف فعرفت وأخبرتك.. ونصيحتى أن تسافر حتى تنتهى العاصفة.

وأبصر كمال أمه تقف أمامهما فقال :

— اخبريه ياأمى.

قالت الأم فى حزم :

— أسمع الكلام ياعمرو.

شعر كمال بانتصاره فقال :

— القضية أكبر منا ياسى عمرو.

كما لو أن عبارة كمال قد أثارت فى نفس عمرو الشك فى أن هذا المعجبانى يمكن أن يفعل كل هذا فابتلع ريقه وصمت يريد أن يفكر.

قفز إلى رأس كمال ماقاله أحد معارفه فى دوائر الأمن من أنه لايمكن أن يقبضوا على رجل له نفوذ عالمى تحتاجه المصالح العليا فى عقد الصفقات الخطرة من أجل امرأة ماتت مخنوقة فى فيللا عمرو وقد تملكه الشعور بأنه من العاملين فى دوائر الأمن فتقمص طريقتهم فى الحديث وهو يقول :

— هذا الملف ينبغى أن يغلق.

تذكر عمرو أن له أصدقاء من أصحاب النفوذ ويستطيع من خلالهم أن يعرف الحقيقة فقال فى تحد :

— لن يغلق الملف وسأصل إلى القاتل.

وتملكت كمال رغبة فى أن يجعله ييأس من الوصول إلى القاتل فوجد نفسه يقول :

— قتل هو الآخر.

غضب عمرو وقال :

— ماذا تقول ؟

— أقصد أنه لابد من انه قد قتل هو الآخر.

وأبتسم وقال فى نبرة خفيضة :

— فى مثل هذه الجرائم لايترك أى دليل.

اغتاظ عمرو من كمال لأنه ابتسم فوقف فى عصبية، وكأن وقفته

ساعدته على أن يستبعد أن يكون هذا الفتى الـذى تركته فتاته يذهب وحده فى استطاعته أن يرتكب الجريمة الكاملة التى لايترك فيها أثرا فقال :

— الجريمة الكاملة ؟!

وبعد أن قـال عبارتـه شعر برغبـة فى أن يتحرر من هـذه الجريمة التى تجثم على أنفاسـه. يذهب إلى المطار ويركب أية طائرة مسافـرة إلى باريس كعادته عنـدما يشعر بالضيق. لن يخبر أحـدا بسفره. اتجه إلى الباب سمع كمال يقول :

— سيتكفل مجدى بمصـاريف السفر.

توقفت خطوته. يعرف أن مجدى يخاف على كل مليم وهو يصرف ببذخ فهو يحب أن يكون أميرا وسط رعية فى كل مكان يذهب إليه. عاد إليه وحدق فى وجهه كما لو كانت نظرته هذه ضرورية ليقول : مجدى؟!

شعر كمال من طريقة نطقه بكلمـة مجدى بأنه يقول له ان مجدى الذى اشتهر ببخله أجدع منه فقال بسرعة، يدفع عن نفسه البخل :

— سأتكفل بنفقات سفر نبيلة معك.

قهقه عمـرو. تضايق كمال. يسخر منـه أمام أمه. وشت نبرتـه بضيقه وهو يقول :

— أنا جدع.

تنبه عمرو من نبرة أمه أنها غير راضية عن حواره مع أخيه وهى تقول :

— وسيزورك صبرى وهو فى رحلته إلى أمريكا.

أراد أن يصمت ولكنه وجد نفسه يقول فى نبرة ساخرة :

— رتبتم الأوراق.

وعندما أبصر أمه تنظر إليه توقفت على شفتيه عبارة: كما رتبوا الأوراق.

أبصرت أمه الحزن فى عينيه.. أرادت أن تفرحه فقالت:

— جليلة فى باريس.

تذكر كمال خبر جليلة الذى وصله من باريس فقال بسرعة :

— آخر أخبارها.

وجد عمرو نفسه يقول بسرعة. يعبر عن رغبة كامنة فى داخله منذ أجبرها أبوها على ترك الحارة :

— أبوها مات.

قال كمال مندهشا :

— كيف عرفت ؟

— حلمت .

بعد أن قال عمرو كلمته شعر بالضيق من كمال. سيضطره لأن يحكى لأمه الحلم ويذكر لها أنه بكى عندما أبصر جليلة ترتدى السواد. لايستطيع أن يخفى شيئا عن أمه وهى تكره أن ترى الدموع فى عينيه تقول له دائما : الرجل لايبكى. شعر برغبة فى البكاء. خاف أن تخونه دموعه وتسيل أمام أمه.. لم ينتبه إلى كمال وهو يقول :

— كلفت أحدا غيرى.. لم تعد تثق بى.

انتبه كمال بعد أن قال كلامه بأنه قد اخطأ.. يلفت كلامه هذا انتباه عمرو إلى الاستغناء عن خدماته فيخسر الكثير فقال بسرعة :

— اضحك معك.

اضطرب عمرو.. خاف أن يكون كمال هازلا فى خبر موت الرجل الذى فرق بينه وبين حبيبته.. ولكنه ابتسم عندما سمع أمه تقول فى لهجة جادة :

— جليلة وحيدة ياعمرو.

تأكد أن حبيبته قد عادت إليه. أراد أن يحتضن أمه ويقول لها : سأسافر الآن إلى باريس.. ولكنه شعر بالارهاق يهاجمه ويتثاءب وهو يقول :

— أنا متعب.

وكأن كمال انتهز فرصة تعب عمرو لينتزع منه اعترافا بأهميته فقال دون أن يكون عنده معلومات :

— معلوماتى تقول ان جليلة تنتظرك.

قال عمرو فى لهفة :

— صحيح ؟

ابتسم كمال فى ثقة.. حصل على اعترافه.. لن يستغنى عن خدماته..

فرح عمرو .. يركب عربته ويـذهب إلى المطار وينتظر طائرة مسافرة إلى باريس ويأخذ جليلـة فى حضنه ويبكى على صدرها ويعوض أيام حـرمانه من حبها. ولكنه وجد نفسه يخلــع جاكتته ويرتمى على الكنبة التى يحب أن ينام عليها.. اندهش من نفسـه.. ارهقته فى الجرى وراء طيف جليلة. وعندما وجـدها تنتظـره يلقى بنفسه على الكنبـة ويريـد أن يغمض عينيه وينـام.. ضحك من نفســه، وكأنما ضحكته بـررت له انطفـاء رغبته فى السفر بـأنه يكره اللـون الأسـود ولايحب أن يـرى حبيبة عمـره تتشح بالســواد.. شعر بالجوع قال لأمه :

— أنا جائع ياأمى.

وكأن أمه سمعته يقول : أنا مسافر ياأمى فقالت :

— سأعد لك الحقيبة حالا.

خلع الحذاء، وكأنه بهذا قال : لن أسافر.

نظر إلى أمه ليرى هل هى غاضبة ؟ لايطيق غضبها لحظة واحدة.. ولكنه وجدها قد أعطته ظهرها.. أبصرهـا أطول من الليلة الماضية.. يرى أمه دائما شجـرة تطول كل يـوم. شعر بـرغبـة فى أن يحتمى بظلها ويبكى.. ولكنهـا خرجت من الحجرة.

ابتسم كمال فى ثقة.. حصل على اعترافه.. لن يستغنى عن خدماته..

فرح عمرو .. يركب عربته ويـذهب إلى المطار وينتظر طائرة مسافرة إلى باريس ويأخذ جليلـة فى حضنه ويبكى على صدرها ويعوض أيام حـرمانه من حبها. ولكنه وجد نفسه يخلـع جاكتته ويرتمى على الكنبة التى يحب أن ينام عليها.. اندهش من نفسـه.. ارهقته فى الجرى وراء طيف جليلة. وعندما وجـدها تنتظـره يلقى بنفسه على الكنبـة ويريـد أن يغمض عينيه وينـام.. ضحك من نفســه، وكأنما ضحكته بـررت له انطفـاء رغبته فى السفر بـأنه يكره اللـون الأسـود ولايحب أن يـرى حبيبة عمـره تتشح بالســواد.. شعر بالجوع قال لأمه :

— أنا جائع ياأمى.

وكأن أمه سمعته يقول : أنا مسافر ياأمى فقالت :

— سأعد لك الحقيبة حالا.

خلع الحذاء، وكأنه بهذا قال : لن أسافر.

نظر إلى أمه ليرى هل هى غاضبة ؟ لايطيق غضبها لحظة واحدة.. ولكنه وجدها قد أعطته ظهرها.. أبصرهـا أطول من الليلة الماضية.. يرى أمه دائما شجـرة تطول كل يـوم. شعر بـرغبـة فى أن يحتمى بظلها ويبكى.. ولكنهـا خرجت من الحجرة.

الهلالية ٦

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

— طار الاندلس ياحبيبتى!

قالها مجدى وهـو يضحك فى سخرية.. ظنـت سهام زوجته أنـه يسخر كعـادته.. تعـودت على سماعه يقـول : صرنـا أغنياء وجـاء وقت الضحك.. ولكنها أحست بالخوف.. وجدت نفسـها تقول :

— هرب الرجل ؟

لم تستطع نبرته أن تكتم حزنه وهو يقول :

— بعد أن سرق تحويشة العمر.

لايمكن أن يكون واقفـا على قدميه ويضحك والرجل قـد سرق تحويشة عمره . أوشكت أن تقول : تضحك على.. ولكنها سمعته يقول : المليون.

ضحكت، كأنها سمعتـه يقـول نكتة.. تضـايق من ضحكتهـا.. قـال فى انفعال :

— أنا مليونير.

وبعد أن قال هذا تنبه إلى أن المليـون قد طارت فضحك.. اغتاظت زوجته من ضحكته.. فقالت :

— لاتضحك.. اخبرنى.. هل اصبحنا من أصحاب الملايين؟

أمسك يدها فى حب وهو يقول :

— زوجك أصبح مليونيرا.

جذبت يدها فى غضب وهى تقول :

— وتخفى عن زوجتك التى تحبك ؟

— كنت اعد لك احتفالا لأخبرك فيه.

وتملكته الفرحة فقال :

— دخلنا نادى أصحاب الملايين ياسهام.

تذكرت أنه رفض أن يشترى فستانا أعجبها فى عرض أزياء وقال لها :

— أدفع ألف جنيه فى فستان.. لست مليونيرا!
قالت :
— رفضت أن تشترى لى فستانا.
قال ضاحكا :
— أصول اللعبة ياحبيبتى.
بدت له أنها لم تفهم، أراد أن يشرح لها اللعبة فقال :
— لعبة المليون لها قواعد.. ومن قواعدها....
قاطعته فى انفعال :
— ألا تستجيب لزوجتك.. وتستجيب لأمك؟

يعرف أنها متضايقة لأنه ينفذ رغبة أمه فى الصرف على رحلة عمرو إلى باريس. وخاف أن تنتهز الفرصة وتحمله مسئولية ضياع ثروته وهى التى طالما حذرته من ايداعها كلها عند هذا الرجل الذى تسميه راسبوتين.. يريد أن يجعلها لاتتكلم.. تذكر انها تحلم برحلة إلى جزر هاواى.. وأنه التقى بأحد الأصدقاء الذى يعمل فى السياحة وأعطاه نشرة بتفاصيل رحلة إلى هذه الجزر فقال لها بسرعة :

— اغمضى عينيك.
تصورت انه اشترى لها هدية فقالت :
— لاأريد شيئا.
— حتى لو كانت رحلة إلى جزر هاواى.
— لاداعى للهزل.
مد يده بالتفاصيل وهو يقول :
— كل شىء عن الرحلة.
قالت وهى غير مصدقة مايقوله :
— نسافر إلى جزر هاواى؟
وجد نفسه ينفعل. لاتصدقه قال لتصدقه :
— لماذا شقيت بصحراء النفط؟ لأحقق لأعز إنسانة....
قالت بسرعة كما لو كانت تخطف الكلمة من بين شفتيه :

— رحلة لجزر أصحاب الملايين.

وبعد أن قالت عبارتها خافت أن يتراجع ولايتحقق الحلم الذى تحلم به منذ قرأت عن جزر هاواى، فهى تعرف بخله الشديد فقالت كما لو كانت بكلامها هذا ستجعله لايتراجع :

— نسافر هذا الصيف. ونأخذ أولادنا معنا.. الأولاد من حقهم أن يمضوا اجازتهم فى ..

ولم تكمل كلامها وقالت :

— لن تخبر أمك.

قال غاضبا :

— أنا لا أخاف أمى.

خافت أن يجعله غضبه هذا يعدل عن السفر فقالت لتجعله يهدأ :

— أعرف ياحبيبى.. رجل ولاكل الرجال.

ابتسم، جعلتها ابتسامته تطير من الفرح.. تريد أن تدير الموسيقى وترقص معه وتضع رأسها على صدره.. احتوته بنظرتها.. احبته ـ فى هذه اللحظة ـ كما لم تحبه من قبل.. نازل الصعب وأصبح مليونيرا ليحقق لها أعز أمانيها وهى ابنة بائع حلاوة زمان التى عانت الفقر فى صباها فراحت تغنى :

— مليونير حبيبى.. حبيبى مليونير.

وكأنها تذكرت انها زوجته فقالت :

— وأنا امرأة المليونير.

قال ساخرا :

— المليونير المفلس.

وكأنه قال نكتة فضحكت ضحكة مفرقعة.. قفز إلى رأسها بعض أفراد أسرتها الذين مازالوا يسكنون الزقاق، تصورت وجوههم عندما تحكى لهم عن رحلتها إلى جزر أصحاب الملايين فاستمرت فى ضحكها.

تضايق مجدى من ضحكتها. يريد منها أن تتوقف عن الضحك وتنتبه إليه ليحكى لها كيف نجا من تحت أقدام الناس.

شعرت سهام بأنه يريد أن يتكلم فتوقفت عن الضحك واحتوته بنظرتها وكأنها تقول بنظرتها : أحك لى ياشاطر حسن.

ارتاح لنظرتها.. فى عينيها نظرة حنونة لايراها كثيرا فى عينى أمه فقال :

— ذهبت لأتأكد أن ثروتنا قد وصلت إلى المليون.

حرك يده. يريد أن يمسك يدها فشعر بالألم. قال :

— أسحب مازاد على المليون لأصرف على رحلتنا.

قفزت من جلستها. احتضنته. أحس بالألم فى جسده. قال :

— أبصرت زحاما.. سمعت صراخا.. تصورى البعض يقول :

— الرجل سرق أموالنا وهرب.

ضحكت سهام ساخرة. قال مجدى جادا :

— أعرف الرجل تقيا.. المسبحة لاتفارق أصابعه.. لابد أن الحكومة قد أرسلت من يطلق فرية حتى يخرب بيته.. الحكومة تحارب مثل هذا الرجل الذى يعرف كيف يجعل الناس تثق فيه بينما هى تفشل.

هزت رأسها فى حماس. شعر بالطمأنينة. لن تعيره بأن ابن أمه الذى أضاع تحويشة العمر. قال باسما :

— وعندما قلت لهم بصوت عال.. انى أعرف الرجل.. تدافع الناس حولى وشجعنى هذا على أن أقول : الرجل صديقى.

قالت :

— شاطر ياحبيبى.

وكأنها أصبحت الناس.. أمسكها من يدها وهو لايشعر بالألم وقال :

— كنت أزوره فى بيته.

سرحت فى المايوه الذى اشترته. سترتديه وتسبح فى جزر هاواى ويلتقط لها الصور، تقول له لاتنس أن تأخذ الكاميرا معك ولكنها سمعته يقول :

— وأصبحت رجلا مهما.

زقزقت بسعادتها وهى تقول :

— دائما أنت مهم ياحبيبى.

تضايق لأنها سعيدة وقد طارت ثروتهما. قال محتدا وهو يجذب يده من يدها وقد عاوده الألم :

— مامن مرة سمعته يتحدث إلا وردد آية قرآنية.. لايمكن لمن يحفظ كلام الله أن يسرق أموال الناس.

اندهشت من احتداده. الكلام الذى قاله لايستدعى الاحتداد.. شعرت بالخوف. تضايقت من نفسها. تخاف فى وقت الفرح. قالت لتنتصر على خوفها :

— وانتصرت على الحكومة.

— وهبط الشيطان.. لواء متقاعد.. قال للناس ان معلوماتهم فى الداخلية تؤكد أن الرجل قد هرب لخارج البلاد.

قالت بسرعة :

— عميل.

— بل أنا العميل.. تصورى أنه قال اننى العميل وأعمل لحساب الرجل وأنا معروف فى دوائر الشرطة.

— وتركوه ؟

قال ساخرا :

ضحكت ضحكة بلامعنى. جعلته ضحكتها يبتلع عبارة : وكادوا يقتلوننى تحت أقدامهم.

أراد أن يصرخ فى وجهها.. تضحك وهو الذى كاد أن يقتل.. وجد نفسه يقول منفعلا :

— كذب.. كذب.. لايمكن أن يأخذ أحد شقاء العمر ويهرب به لمجرد أن لواء متقاعدا ذهب إلى وزارة الداخلية وعاد ليقول انه هرب إلى خارج البلاد.

أبصر نظرة تعاطف فى عينيها فهدأ.. رقت نبرته وهو يقول :

— ليس عدلا ياسهام.

وكأنها وجدت فرصتها. قالت بدلعها :

— وليس عدلا يامجدى أن يكون زوجى مليونيرا وزوجته...

قال دون أن يجعلها تكمل كلامها :

— لك حق.. سأشترى لك كل ماتريدين من فساتين.. سأجعلك أشيك امرأة فى جزر أصحاب الملايين.

— ياحبيبى.

وكأنــه مازال يملك المليــون والــرجل لم يهرب ويتحقق لها رحلة العمــر فقال فى فرحة :

— زوجك ياسـهام وضـع الجنيه فوق الجنيه حتى صـار مليونيرا.

شعرت من نبرته انه يخفى الحقيقة.. تملكها الخوف.

أبصر لون وجهها قد تغير. خاف أن تكون قد اكتشفت أنه يضحك عليها ولن تسافر إلى جزر هاواى.. أراد أن يهرب من خوفه فقال بسرعة :

— تذكرين عندما كان المال يجرى بحرا.

أرادت أن تهرب من خوفها فقالت :

— تزوجت فارسا.

قهقه وهو يقول :

— طارق بن زيــاد الذى وقف يخطب فى جنــوده ولوح بيده كما لــو أنه القائد العربى وراح يقول :

— العدو أمامكم والبحر خلفكم.

بدت البــلاهة على وجهــه. لاتحب أن ترى زوجهــا فى مثل هــذه الصورة تريد أن يتوقف عن هذا الحديث ويقول لها مايخفيه عنها فقالت بسرعة :

— وفتحت الاندلس.

وكأن نبرته تبكى على صدرها وهو يقول :

— وطار الاندلس.

وجدت نفسها تزعق.

— لايمكن أن يطير.

— لك حق ياسهام.. الذى يعوم فى بحر من المال ولايرتكب خطأ واحدا.

وصمت للحظة ثم قال :

— لا.. ارتكبت خطأ واحدا.

— بسببى.

— استجبت لدموعك.

— الغربة امرضتنى.
— تركت البحر وأنا الذى لم أكن أنوى أن أتركه حتى آخر قطرة.
قالت فى شىء من الدلال :
— تخاف على.
— وجئنا للفقر.
وتنبه انه ذكر الفقر. لايريد أن يبدو فى عينى زوجته التى انتزعها من فقرها. فقيرا فقال بسرعة :
— تذكرين عندما كنا نغلق باب حجرة نومنا بعد أن ينام الأولاد.. وافتح حقيبتى السوداء الممتلئة بالدولارات ونعد.
قالت كالغاضبة :
— لم تكن تسمح لى بأن أعد معك.. أنت أنانى.
ضحك مجدى. قالت :
— كنت تريد أن تستمتع وحدك بعد الدولارات.
أمسك يدها بحنان وقال :
— كنت خائفا عليك يازوجتى الحبيبة من أن يدركك سحر الدولار. تسحرك جنيته.. وعندما تسحرك الجنية.. فمن يعتنى بأولادنا الصغار؟
— عرفت الآن.. لماذا كنت تمنعنى من أن أشاركك العد.. كنت تخاف أن أعرف أنك قد أصبحت مليونيرا.
وقاطعها قبل أن تقول : وأطالبك بتنفيذ ماوعدتنى به.. أن تحقق لى كل ماأريد بعد أن تصل إلى المليون.
فقال بسرعة : أخاف عليك من الغرق.
— ولكنى أعرف العوم.. اشتريت مايوه سأسبح به فى جزر هاواى.
قال كالغاضب لينهى الحوار :
— زوجتى لاتعوم بالمايوه أمام الأغراب.
اندهشت. طالما سبحت بالمايوه على شاطىء الاسكندرية ورآها الأغراب ولكنها شعرت بالسعادة.. يغار عليها.. مازال يحبها.. تطلعت فى المرآة التى أمامها.. مازالت جميلة.. تحسست شعرها الطويل. اخرجت سيجارة من

علبتها الذهبيـة.. اشعلتها.. نفثت دخانها.. تضايق من دخانها الـذى تطاير حوله.. قال غاضبا :

— دخانك يضايقنى.

أوشكت أن تقول : تحبنى ياحبيبى ولكنها قالت :

— غيرك المليون ياحبيبى ؟

وقف.. خيل لها أنه سيخرج.. شعرت بالحاجـة إليه.. تريد أن يطمئنها : هل حقا أصبح مفلسا ؟ آلمتـه أصابع قدميه. الحذاء ضيق.. يـريد أن يخلعه ولكنه قال :

— سأثبت لك.

كما لو أنها قـد قالت له : أصبحت مفلسا.. فأراد أن يثبت لها أنـه مازال غنيا يملك مـالا، فأخرج الأوراق المالية التـى يخفيها عنها.. وعنـدما أمسك الأوراق المالية الجديدة بقبضـة يده شعر بالفرحـة.. تذكر أطفالـه يريد أن يشاركوه فرحتـه. نادى على أولاده.. خالد وعزيز وسحـر، وعندما أبصرهم يدخلون عليه ألقى بالأوراق الماليـة إليهم.. ظن أطفاله أن أباهم يلعب معهم لعبة جـديدة.. فوقفوا ينتظـرون منه أن يشرح لهم ماذا يفعلـون؟ خاف أن تأخذ زوجته منهم المال فقال لهم :

— أجروا .

هلل الأولاد وهم يسمعونه يقول :

— اشتروا ماتحبون..

شعـــر بحـاجتـــه إلى الموسيقى.. أدار الموسيقى.. أحست سهـــام بأن الموسيقى تخنقها. أوقفت الموسيقى فى عصبية. ضـحك مجدى وهو يقول :

— تكرهين الموسيقى.. أصبحت مليونيرة.. عندما كنت فقيرا.. كنت أنام وأصحـوا على الموسيقى.. ولكن عنـدما صرت مليـونيرا كـرهت الموسيقى.. الموسيقى تجعل القلب يرق والدولار يريد القلب قاسيا.

أوشكت أن تسألـه : صارحنى.. هل ضـاعت تحويشـة العمر؟ ولكنهـا أبصرته ينحنى أمامها وهو يقول :

— سيدتى.. هل تسمح لى بالرقصة القادمة ؟

توقع أن يسمع ضحكتها.. ولكنه أبصر فى عينيها شيئا من الدموع.. يكره أن يرى دموعها.. تملكه الغضب :

— تظنين أنى أصبحت فقيرا.. أنا غنى.. أنا مجدى ابن زهيرة هانم جئت بالمليون.. وأعرف كيف أجيء به مرة أخرى.

ومال عليها وقال بصوت خفيض كما لو كان يذيع سرا:

— يقولون ان الرجل قد هرب، إلى جهة غير معلومة ، ولكنى اعرف أنه فر إلى فرنسا.. يملك قصرا خارج باريس.. سأسافر إلى باريس ليجدنى فوق رأسه ومعى مسدسى.

وأسرع يخرج مسدسه الذى يخفيه فى دولارب ملابسه وصوبه نحوها كما لو كانت سهام هى الرجل الذى هرب بماله.. انخطف قلبها وهو يقول : الموت أم المليون؟

أبصر الخوف فى عينيها. شعر بأنه على وشك الانتصار فقال :

— انطقى.

ارتعبت.. تخاف أن يضغط على المسدس فينطلق الرصاص فقالت بفزعها :

— المليون.

فرقعت ضحكته وهو يقول :

— استردت المليون بلا طلقة رصاص.. المسدس بلا رصاص..

شجعها هذا على أن تمد يدها وتأخذ المسدس من يده قال :

— أرأيت؟ فى لحظة الموت تهون الملايين.. أنت قلت المليون بمجرد التلويح بالمسدس فى وجهك.. فما بال الرجل الذى سرق ملايين الناس.. ويريد أن يستمتع بها.. أنا أعرف الرجل.. رجل لذائذ واللذة لاحدود لها.

وكأنه يطمئن نفسه قال :

— لذة المال تضعف القلب وتجعل من يغرق فيها جبانا!

اقترب منها وحدق فى وجهها :

— انظرى فى عينى.. ستجدين الشجاعة.

وضحك وهو يقول :

— لأنى فقير!

وكما لو أن عبارته هذه قد جعلت كل أيام الفقر التى أمضتها فى الزقاق قبل أن تتزوجه تسقط فوق رأسها فصرخت تقول: ضاع المليون.. ولكنها قالت: ضاع العمر.

ذكرته عبارتها بأن تحويشة العمر قد ضاعت.. وأنه يخاف أن تعرف أمه أنه فقد ماله.. فأمسك يدها يستعطفها:

— لا تخبرى أمى ياسهام..

تذكرت أمه .. السبب فى كل ماجرى لهما.. طلبت منه أن يضع كل ماله عند هذا الرجل.. وعندما اهتزت الثقة فى الرجل رفضت أن تجعله يستجيب لرغبتها فى أن يسحب ماله من عنده.. أرادت أن تقول له: أمك التى أضاعتنا ولكنها قالت:

— أضعتنا يا ابن زهيرة هانم..

ارتاح لأنها لم تقل له: يا ابن أمك.. كعادتها عندما تغضب.. ابتسم.. تناول سيجارة من علبتها الذهبية.. سقطت نظرته على أساورها.. يبيع ذهبها.. ويسافر إلى باريس.. ويعطى عمرو مايريد ويصرف على معركته مع الرجل.

أحست سهام من نظرته أنه سيأخذ ذهبها.. باعه من قبل ليسافر إلى بلاد النفط بحثا عن عمل.. قالت غاضبة:

— لن تبيع ذهبى..

ضحك وهو يقول:

— كيف عرفت أننى فكرت فى ذهبك؟

استفزتها ضحكته.. اختنق صوتها بالانفعال:

— لن تأخذ أساورى يا ابن زهيرة هانم.. أبصرت الأم تقف أمامهما وهى تقول:

— أى أساور يا زوجة ابن زهيرة هانم؟!

تملكها الغضب.. تصرخ فى وجهها وتقول لها: أنت سبب كارثتنا.. ولكن عندما وقعت نظرتها فى نظرة الأم توقفت عبارتها بين شفتيها.. شعرت

بأنها أضعف من أن تقول لها هذا.. قالت فى صوت مهزوم:

— ذهبى يا زهيرة هانم..

ووجدت دموعها تسيل وهى تقول:

— يبيعه ليرسل لعمرو..

لم تنتظر الأم حتى تكمل سهام عبارتها.. نظرت إلى مجدى فى غضب وقالت:

— تبخل على أخيك..

— ابنك لم يعد يملك شيئا.. هرب الرجل بكل ماله.

— إذن ماسمعته كان صحيحا.. خائب كأبيك..

أراد أن يقول.. سأسترد مالى.. ولكنها أشارت إليه ليسكت.. فابتلع عبارته.

والتفتت الأم لسهام وقالت:

— كفى عن البكاء.. ولا تفرطى فى ذهبك..إنه أمان أطفالك.. وأنت..

قال مجدى فى انكسار :

— نعم يا أمى ..

— لن تكون ابنى حتى تسترد مالك الذى لم تحافظ عليه كالرجال..

ابتسم ابتسامة بلهاء وهو يقول :

— سيعود الأندليس ..

حدقته بنظرة حادة وكأنها تقول بنظرتها : أجننت ؟!

قال مجدى :

— أنا عاقل يا أمى..

أبصر ورقة مالية صغيرة تركها أطفاله على السجادة.. انحنى عليها والتقطها وهو يقول :

— أنا مليونير.

قالت الأم وكأنها لم تسمع عبارة مجدى:

— وصبرى يتولى الصرف على رحلة عمرو فى باريس ..

وبعد أن خرجت الأم.. مد مجدى يده بالورقة المالية الجديدة لسهام..

مدت يدها.. لامست أصابعها أصابعه.. التقت نظراتهما أبصرت الهزيمة فى عينيه.. لاينهزم فارسها.. تفجر الحب فى داخلها.. تريد أن تقول له: أحبك ياعمرى.. وكما لو أن أساورها ستقول له هذا خلعت أساورها.. خلع مجدى الحذاء الذى كان يضايقه.. ألقى بنفسه فى حضنها. احتضنته كما لوكان طفلها.. وغرقا فى بحر من الحب.. قال لها وهما يفترشان السجادة:

— لا تخافى على أساورك.. زوجك ليس بخائب .

قالت وهى تغالب حزنها :

— فاتح الأندلس ليس بخائب !

ولكنها لم تستطع أن تمنع دمعة من أن تفر من عينيها..

قال مجدى وهو يمد يده، يريد أن يمسح دمعتها فبدا كما لو أنه يريد أن يمسكها وهو يقول:

— دمعة فرح.

وصاح : أريد موسيقى.

ادارت سهام الموسيقى .. جذبها من يدها وراح يرقص معها.

سمعته كما لو أنه يقول : نحتفل بدخولنا نادى أصحاب الملايين.

وسمعها كأنها تقول : نحتفل بعيد زواجنا فى جزر هاواى وأصبح بالمايوه البكينى!

قهقه وهو يقول : مجنونة حبيبتى .. مجنونة!!

الهلالية



الهلالية

قال عمرو غاضبا لأخته نبيلة وهما يجلسان فى مقهى فى الشانزلزيه:

— صبرى يرسل لى مالا؟!

وابتلع عبارة: الماركسى الفقير وقال:

— الى هذا الحد أصبحتم تعطفون علّى؟!

وصمت للحظة وقال كأنه يحدث نفسه:

— أنا عمرو..

انزعجت نبيلة لغضبه.. تريد أن تراه سعيدا.. فقد حقق لها أمنيتها فى السفر الى باريس.. قالت:

— هذا بعض من خيرك..

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

— صبرى؟

قالت بسرعة:

— صبرى يحبك..

أوشك أن يقول: صبرى يحب نفسه.. ولكنه قال:

— الحب عملة نادرة فى هذه الأيام..

تعرف مدى الصدمة التى أصابته من جراء مانشر فى بعض صحف مصر. كان يتوقع ان تقف معه بعض الأقلام فى محنته ولكنها تخلت عنه وهاجمته.

فقالت:

— ولكنهم غمروك بالحب.

فهم أنها تشير الى الاحتفال الذى أقاموه له اعترافا بفضله على الأغنية العربية فقال:

— احتفالهم بى فى باريس أطار النوم من عينى.. وجعلنى أفكر طوال الليل.. هل أنا هذا الفنان الذى كرموه حقا؟..

وقبل ان تقول شيئا قال:

— واذا كنت هذا الفنان حقا.. فهل أخطأت فى حقه؟!

تذكرت الحملة الصحفية التى تقودها صحف المعارضة على الحكومة لأن سلطات الأمن سمحت له بأن يسافر الى الخارج وهو المتهم بجريمة قتل فقالت فى نبرة لم تستطع أن تخفى غضبها..

— هم الذين أخطأوا فى حقك..

فهم من نبرتها ان شيئا جديدا قد حدث فى مسلسل الهجوم عليه فى القاهرة فقال دون ان يعنى ما يقول:

— صحف المعارضة بدأت الهجوم..

تخاف على قلبه من الانفعال.. حذرها الطبيب الفرنسى الذى كشف عليه من انفعاله. قلبه أصبح مرهقا.. فقالت دون تفكير:

— بدأت الهجوم على الحكومة..

قال ساخرا:

— أصبحت أنا الحكومة..

قالت بسرعة:

— المعارضة تهاجم الحكومة لأنها كشفت لعبتها.. تصنع من قضيتك قضية رأى عام.. تشغل بها الناس عن متاعبهم الاقتصادية.

يكره الكلام الذى يضخم قضيته قال فى صوت مرتفع :

— لماذا لم تحضرى الصحف معك؟

أخفت صحف المعارضة عنه حتى لايتعكر مزاجه فقالت فى صوت خفيض :

— نسيت.

تأكد من أن المعارضة بدأت الهجوم عليه فانفعل :

— أنا لست صغيرا.. لاتخفى عنى شيئا.. أريد أن أقرأ كل شيء.

قالت بحزنها : أمرك.

تضايق عمرو من نفسه. أرهقها فى باريس. والآن يقسو عليها دون

مبرر. وقعت نظرته على الجارسون الفرنسي الذى يحييه بوضع طاقية ابن البلد الشبيكة على رأسه.. فضحك، وكأنه بضحكته يعتذر لها عن انفعاله عليها.. أراد أن يهرب من حديث الهجوم عليه فى صحف المعارضة فقال وهو يشير إلى الجارسون الذى يتجه وهو يتمايل كما لو كان فى مقهى شعبى :

— جاك عاش فى الاسكندرية.

وقدمه لنبيلة قائلا :

— حميدو.

ابتسمت نبيلة وجاك يقول :

— أجدع ناس.

ووضع القهوة الفرنسية أمام عمرو. قال له :

— من قال لك ياخواجة اننى أريد قهوة فرنسى.. أريد قهوة تركى بالبن المحوج؟

— لست فى الانفوشى ياسى عمرو !

قهقه عمرو وهو يقول :

— صعلوك.

— وأنت معلمى.

يروى له ـ دائما ـ النكت التى يسمعها من رواده العرب فقال :

— وآخر نكتة.

— غير المؤدبة طبعا.

إحمر وجه نبيلة قال عمرو :

— تأدب ياخواجة.. اختى نبيلة.

— كيف اعرف؟ اضرب الودع.

ورفع الطاقية من على رأسه كما لو كانت قبعة وأحنى رأسه لنبيلة وقال :

— معذرة ياهانم.. الاستاذ هو المخطىء.. لم يقدمك لى لأتحشم أهلا وسهلا.. نورت باريس.

وقال بخفة ظل ابن البلد وهو يتركهما :

— سأذهب لأحضر نكتة مؤدبة بالبن المحوج.. مخصوص للهانم.

ضحك عمرو وهو يقول بلغة المقاهى البلدية :

— واحد نكتة وصلحه .

ضحكت نبيلة بسعادة لأن عمرو يضحك من قلبه. تذكرت أن أمها أرسلت معها البن وعدة القهوة فقالت :

— سأصنع لك كنكة قهوة بالبن المحوج فى الفندق وأقرأ لك الفنجان.

تذكر عمرو غجرية الحى اللاتينى التى قد رأت له الطالع وقالت : ستقابل من تبحث عنه فى باريس.. ضحك ضحكة ساخرة من نفسه.. أصبحت مهمته فى باريس الحملقة فى الوجوه باحثا عن رجل اسمر!!

انشغلت نبيلة عنه فى التفكير.. لاحظت انه قد أصبح يحملق فى الوجوه حوله كثيرا.. على غير عادته.. خافت أن يكون قد عرف أن النيابة فى مصر قد أمرت بالقبض عليه ، وتملكه الشعور بأنه مطارد.. حرصت منذ عرفت الخبر أن تخفيه عنه.. تملكها القلق.

وقعت نظرتها على رجل يقبل امرأة أمام المقهى فقالت كما لو كانت تحدث نفسها :

— بلد الحرية.

قال فى نبرة وشت بحزنه :

— ولكنى أشعر بأنى مسجون!!

وقبل أن يقول : ليست باريس التى اعتدت عليها .. سمعها تقول :

— أنت حر ..

انفعل قائلا :

— أنا منفى.

— جئت لتكرم.

قال ساخرا من نفسه :

— أصبحت مهمتى فى باريس الحملقة فى الوجوه المارة فى شوارعها باحثا عن رجل اسمر قتل امرأة فى بيتى.

ارتاحت.. لم يعرف بالقبض عليه.. قالت كما لو أن العثور على رجل فى شوارع باريس المزدحمة امرا سهلا :

— ستجده !!

تضايق من استسهالها الأمر فقال فى انفعال :

— كيف أعثر على رجل لاأعرفه.. ولم أتكلم معه كلمة واحدة؟

تنبهت إلى أن الأمر غير معقول فضحكت. بدت له وهى تضحك كما لو كانت طفلة وعليه أن يجعلها تفهم.. استخدم يديه لتفهم.. قال :

— فى تلك الليلة.. كنت هائما فى شوارع القاهرة أطارد لحنا.. أشعر به وعندما اقترب منه لا أجده....

وضحك وهو يقول :

— وألحانى فى السنوات الأخيرة أصبحت كالغوانى يتدللن على.. عندما اقترب منهن يهربن.. أيام البكارة ذهبت يانبيلة.. قلت لنفسى : انشغل عنه وأذهب إلى الهلالية وأنغمس فى زخمها الشعبى.. ولكنى تذكرت اننا فى ليلة العيد.. ولابد من أن سيدة قد فتحت الفيللا للأصدقاء.. فهى تعرف أنه يسعدنى أن أراهم يأكلون ويشربون ويثرثرون.. فجريت بسيارتى إلى المعادى.. ودخلت إلى الحديقة ورحت أتأمل الخضرة السابحة فى الأنوار وأحدث زهورى.. بينى وبين الزهور حديث حب.. شعرت بالنشوة.. انتابتنى رغبة فى أن أتحرر من ملابسى وألقى بنفسى فى حضن الطبيعة.

وأنا أسبح فى مياه حوض السباحة المنعشة ظهرت لى الغانية.. أغمضت عينى.. أريد ألا تشغلنى عن حمامى المنعش.. ولكنى مالبثت أن شعرت بأنها تلح على.. يرقص اللحن فى داخلى.. أعرف هذه اللحظة. لو عاندته ولاأعرف متى يصالحنى؟ لامفر من الاستسلام له والاسراع إلى حجرتى لأقيم له عرسا على أنغام البيانو لتستسلم لى هذه اللعوب وتنام فى حضن انغامى!

ودخلت القاعة التى تؤدى إلى حجرتى.. لأجدها عامرة ببهجة الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء.. كان من المفروض ـ كعادتى ـ أن أفرح ولكنى شعرت باكتئاب.. الود يخنقنى. أريد أن أصرخ فيهم: اذهبوا.. انقذتنى من هذه

اللحظة نظرة امرأة.. ابصرت البراءة فى عينيهــا.. جسدت لى اللحن الذى كان يتقافز فى داخلى.. انــدفعت نحوها.. آخذ شيئا من رومــانسيتها قبل أن أبدأ احتفالى الموسيقى.. لحظة ميلاد اللحن عنـدى احتفالية.. جلست بجوارها.. اسمع صوتها.. سمعت صوتها قالت :

أحبك يــاعمرو.. انقبض قلبى.. كما لـو أن عبــارتها حملت لى موتــا.. فى الحب أحيانــا يسكن الموت.. وقعت عيناى فى عينيها.. أبصرت تـوحشا.. أين البراءة التى التقيت بها عنـدمــا وقعـت نظـرتى فى نظـرتها.. شعـرت بأنها تغتصب لحنى.. اهــرب بــه إلى حجـرتى.. وجـدتها فى خطـواتى.. ارتعبت.. ليست امــرأة شقراء بل جنيــة تريـد أن تأخذ الفتى إلى أعماق البحــر تأكل عظــامه قبل لحمــه.. انقذنى احـد الرجــال.. ابتسمت له.. ابتسم لى.. شعــر بــرغبــة فى أن يــرى نــارا.. أشعــل ولاعتــه دون أن يشعل سيجــارة وقــال وأصابعه تقترب من النار :

— لم تستغرق نظرتى لصاحب هذه الابتســامة فى الزمن العادى سوى لحظة.. ولكـن اللحظة فى زمنى أنــا.. أصبحت زمنا طـويلا.. فالأمــر يتعلق بإنقاذ سيـدة من الموت.. اتعرفين من سيدة؟ امــرأة اضاءت عمرهــا شمعة لألحانى ليسعد النــاس.. لايمكن أن يرضـى الله بـذبح امرأة أسعــدت الناس بلاذنب جنته.. تقولين القدر؟ أى قدر الذى يشنق امرأة تحب.. انى اعرف.

ونظر فى عينيها نظرة مشعلة بالارادة وقال :

— تسـألينى كيف عرفت؟ لقد اكتشفت فى هذه المحنة أن الله اعطانى قوة خفية اعرف مالا تعرفونه.. فأنا فنان مهمتى أن أجعل الناس فى حالة نشوة لكى تروا جمال الدنيا التى خلقها الله جميلة.

أنا أنفذ كلمة الله : حب الجمال.

وقال بفرحة طفل :

— تبينت انى اعــرف الـرجـل جيـدا.. ومـلامحه أصبحت محفـورة فى ذهنى.. وصوتــه يملأ رأسى برغم من انه لم يحدثنى.. استطيع أن أخـرجه من آلاف الناس بمجرد أن أنظر إليه أو أسمع صـوته.

وقال وقد انتابه الشعور بالقوة :

— أنا خليفة الله.

وأطفأ نار الولاعة بأصابعه وهو يقول :

— لايمكن أن تموت سيدة !

فزعت نبيلة : أصابعك.

ضحك عمرو وهو يقول : لاتخافي على أصابعي من هذه النار.. وتنهد وهو يقول : هناك نار أخرى تمسك وابتلع كلمة : روحي

شعر بدموعه. أسرع يقول كما لو كانت نبيلة هي التي ستبكي: ليس هذا وقت الدموع.. سأجعلك تضحكين. تصوري بمجرد أن ابصرتني الغجرية التي تعودت أن تقرأ لي الطالع كلما التقيت بها في مقهى الحي اللاتيني قالت لي :

— ستعثر على من تبحث عنه.

وأضحك نفسه بضحكة. توقعت أن تسخر كلماته من الغجرية. ولكنها وجدته يقول بصوت ليس صوته الضاحك :

— ارتجف قلبي.. سأعثر على الرجل الأسمر.. أعرف ان المرأة مكشوف عنها الحجاب.. قرأت ماقررته.. قبل أن التقي بها بقليل في المقهى كنت قد حسمت الصراع في داخلي.. الخروج من الدوامة التي أعيشها.. وحل اللغز يبدأ بالرجل.

وقبض بيده على لاشيء، وكأنه يقبض على عنق الرجل وقال :

— أعثر على الرجل وأصل منه إلى الدهشان.

تملكته رغبة في الانتقام وهو يقول :

— اني متأكد من أنه الدهشان.. الدهشان ولا احد غيره.

وكأنه يحل اللغز وهو يقول :

— هذا الرجل الأسمر من أتباعه المخلصين.. ارسله لي لينتقم مني للاهانة التي لحقت به لأني جعلت فتاته التي يحبها ترفض الانصراف معه. وتجلس لتستمع إلي وأنا أغني بعض ألحاني في الحفل الذي أقيم لي على شرفي.. قال لي صديق يعرفه الدهشان جيدا انه لن يغفر لي هذا وسينتقم مني.

وابتسم كأنه يبتسم لنجاحه فى حل اللغز.
تذكر أن أخاه كمال قال له : لابد انهم قد تخلصوا من الرجل الأسمر ليتخلصوا من اثر الجريمة فقال :
— من نظرتى للرجل وهو يجذب المرأة ليمنعها من الدخول إلى حجرتى.. وتوقف عن الكلام وهو ينظر إلى وجه رجل يدخل المقهى وقال :
— ليس رجلا يسهل التخلص منه.
ورشف شيئا من قهوته وجدها باردة. تضايق .. لم يجد رغبة فى نفسه لأن يقول لها انه قد حام عدة مرات حول قصر الدهشان خارج باريس الذى يمضى أجازته فيه. هاجمه التعب فجأة. يريد أن يرتاح على صدر أمه نظر إلى نبيلة. يرى فيها أمه.. أبصر وجه طفلة منبهرة بكرنفال الشانزلزيه. اغتاظ منها. أراد أن يجعلها تنظر إليه فقال كما لو كان يلقى بقنبلة فى وجهها :
— أبصرت الرجل أمامى.
شعر بأن قلبها يقفز. ابتسم قال :
— قفزت من مقعدى.. قلت لنفسى لابد أن الغجرية أبصرت بشفافيتها الرجل قادما فأردت أن تنبهنى.. قالت نبيلة فى اهتمام :
— وأمسكته ؟
تضايق.. لاتريد أن تسأله. أشار إليها لتصمت وهو يقول :
— اندفعت نحوه.. وتنبهت وأنا مندفع إلى أنى فى باريس.. وباريس مدينة لاتغفر لمن يخطىء فى حق إنسان.. كان من الضرورى أن أسبقه وانظر إلى وجهه لأتحقق من أنه الرجل الذى أريده.. ويبدو أن الرجل قد أحس بى .. فراح يختفى عنى بالزحام.. ولكنى أبصرته يهبط سلالم محطة المترو القريبة.. لن اجعله يهرب كما هرب ليلة الجريمة.. من الأفضل ألا يشعر بى وانقض عليه فجأة.. اختفيت وراء الناس. توقعت ألا يركب عربة المترو المزدحمة ولكنه ركبها.. أسرعت أدس جسدى فى أجساد الناس غير مبال بانزعاجهم..
شعرت ـ فى هذه اللحظة ـ كما لو كنت فى سباق عدو ووصلت إلى

نهايته.. التقط أنفاسي وارتاح فى أجساد الناس.. الرجل الذى أطار النوم من عينى فى قبضتى توقف المترو.. خف الزحام.. أبصرته يقف على بعد خطوات منى.. أريد أن أتحقق من وجهه ويبدو أنه شعر بهذا فأدار ظهره لى.. أراه من ظهره.. شعره طويل كما لو كان امرأة.. لم ألحظ شعره الطويل عندما كان فى زيارتى.. لابد أنه أطال شعره حتى لا أعرفه.. ولكنى عرفته.. أهاجمه من الخلف.. ولكنى لا أحب أن أضرب أحدا فى ظهره.. أواجهه من الأمام.. من عادتى ألا أتسرع فى الهجوم.. لابد من تفكير.. أشعل سيجارة لتساعدنى على تفكير هادىء..

التفت الرجل نحوى وهو يقول فى غضب: ممنوع التدخين.. ارتبكت.. أخطأت ـــ والخطأ الصغير فى باريس يصبح كبيرا. تركز همى ـــ فى هذه اللحظة ـــ أن يسامحنى على هذا الخطأ حتى لايصل إلى الشرطة... اعتذرت له كما لوكان إنسانا آخر غير الرجل الذى اتعقبه ويبدو أننى قد ابتسمت عندما تنبهت إلى هذا.. فابتسم.. وجدت ابتسامته الغامضة.. تحققت منه..إنه الرجل الأسمر الذى ابحث عنه.. صرخت.. ولكن يبدو أن صرختى ابتلعها صوت المترو السريع.. فلم يبدو على أحد من الواقفين رد فعل.. ارتحت لأنهم لم ينتبهوا لصرختى وكنت ما أريده ـــ فى هذه اللحظة ـ هو أن أتأكد من أن صرختى وصلت إلى الرجل.. أبصرته يبتعد عني ويذهب إلى آخر العربة.. كنت فى منتصفها.. فعرفت أن صرختى قد وصلت إليه ومادام قد فعل هذا فإنه قد عرفنى.. وهذا ماأريده الآن.. أبصرته واقفا وقد توقعت أن أراه جالسا وينظر إلى فى تحفز.. حدقته بنظرة.. بدا لى كما لو كان مصارعا متقاعدا.. شعرت بخوف ما، كان من المفروض أن يكون هو الخائف. ولكنى لست متعودا على منازلة المتصارعين.. حاولت أن اطمئن نفسى بأن هذا من الأمور الطبيعية أن يستعين رجل اشتهر بالصفقات الخطرة كالدهشان بهذا النوع من الحراس الذين يبدو عليهم مظهر القوة.. ولكن إذاعرفت نقطة ضعفهم تجدهم كالورق ولكنى شعرت بالاطمئنان تماما وأنا أقول لنفسى أنى صاحب حق.. فمن حقى ألا أخرج من حجرتى وأنا أعزف على البيانو لأجد امرأة مخنوقة وتصرخ سيدة

مديـرة البيت قائلة: الرجل الأسمـر خنقها وهرب.. شعرت بقـوة ماجعلتنى أتغلب على لحظـات التوتـر التي تملكتنى منـذ ركبت المترو فى أثر الـرجل.. وانظر إلى طفلـة جميلة كـانت فى حضن أمها الفـرنسية وابتسم فأنـا أحب الأطفـال لأنهم أحبـاب الله وأنـا محروم منهم.. وأخـرج قطعـة حلـوى من جيبى.. وأمد يـدى إليها وأقول لنفسى لـوقبلتها الطفلة أكسب المعـركة مع المتصـارع.. تنـاولتها الطفلـة سعيـدة وضحكت.. وجـدت الطفل فى داخلى يضـحك.. فضـحكت الأم وشـاركنا الـذين حولنـا الضحك فالضحك معـد.. شعرت بسعادة غامرة جعلتنى أنسى أننى أراقب متصارعا.. توقف المترو.. نزلت الطفلة فى حضن الأم بـدوت لنفسى كما لوكنت سـأنزل معهما.. ولكن الرجل الذى أطارده يقف على بعد خطـوات.. نظرت إليه وقد توقعت أن أرى على وجهه أثر الضحك.. ولكنى أبصرت نظراته قد ازدادت تحفزا.. اكتشفت أننى قد أخطأت عندما صرخت ليعرفنى.. كان يجب ألا يعرفنى حتى أباغته بضربه فى نقطة ضعفه وأصحبه إلى الشرطة..

أنزل بسرعـة كما لو كنـت ألحق المرأة وطفلتها واركب العـربة الثـانية وأرقبـه من بعد.. ولكن البـاب انغلق ومضى المترو.. فكرت فى أن أهـرب من نظراته المتحفـزة.. أعطيه ظهرى.. بحركتى هـذه أصحح خطاى.. يتأكد من أنى قـد نسيت الرجل الـذى خنق المرأة وهو يعـزف على البيانـو.. فيجلس وترتخى عضلاته.. ويقرأ الجريدة الفرنسية التى يحملها معه..

أفسحت لأحـدهم مكـانا وانتهـزت الفـرصة وأعطيت الـرجل الأسمـر ظهرى.. شعرت بـالراحة.. حركتى بـدت طبيعية.. ولكنى اكتشفت أننى قد وقعت فى مشكلـة.. كيف أراقب قاتـلا بظهـرى؟ قلت لنفسى لأضعها أمـام الأمر الواقع.. تشنق سيدة أو لا تشنق تلك هى المسألة.. شعرت بالتحدى.. بدا لى ـ فى هـذه اللحظة ـ كما لو أنى قد أبصرتـه جيدا.. أجمع كل حواسى.. واركزها فى شىء واحد.. يستطيع أن يعريـه.. وأمسك خلجاته خلجة خلجة فأسمعه يتـذكر لحن الغجريـة الأسبانية الـذى كنت أعزفه على البيـانو فى حجـرتى.. لتطير المرأة الشقراء كفـراشة حـول أنغـامى.. وترقص رقصـة الموت قبل أن تحترق..

كانت تعرف أنها ستموت فاستعدت لحفل الموت.. ارتدت ملابس غجرية غرناطة واختارت أغنية الوداع.. الموت عشقا على أنغام لحن عاشق.. وأنجز الشيطان مهمته واختفى فى الظلام.. ارتكب الجريمة المثالية التى تليق بالموت فى بيت فنان.. ولكنه يكتشف ـ الآن ـ بعد أن أصبح إنسانا أنه قد ارتكب الجريمة الخائبة.. هذا الفنان يقف أمامه ولا ينظر إليه بل يعطيه ظهره.. وهذا ينم عن قمة الثقة فى النفس لن يستطيع أن يهرب من العدالة هذه المرة.. يجد نفسه أمامها فى مترو ضواحى باريس السريع وليس أمامه سوى أن يلقى بنفسه تحت عجلات المترو ليهرب منى.. ولكن هذا أمر مستحيل.. فالأبواب محكمة الإغلاق وهو جبان خنق المرأة وهى مقتولة.. شعرت بحقارته.. لم أجد ــ فى هذه اللحظة ـ أحقر من الفأر. ومادام قد تصورته فأرا.. فلا بد أن أكون قطا.. ومادام هو فأر حقير إلى هذه الدرجة.. فلابد أن أكون قطا متوحشا.. شعرت بالفرحة.. أنا الآن قط متوحش.. تحسست أظافرى.. اكتشفت أنها قد طالت أكثر مما يجب.. أهملتها منذ وصلت إلى باريس.. ابتسمت..

تذكرت أننى قد سلكت سلوك القط معه.. بمجرد أن يقع الفأر فى قبضة القط يتشاغل عنه حتى يشعر بلذة المباغتة.. باغت الرجل بنظرتى.. أبصرته خائفا.. كما كنت أتوقع.. يحتمى بجريدته منى.. أسعدنى خوفه.. أريد أن أشعر بسعادة أكثر.. اقتربت منه.. فوجئت به يتراجع برأسه دون أن يقف. شلت مقاومته.. أبصرت فى نظرته الزائغة استرحاما أحسست بانكسار فى قلب إنسان فى اللحظة التى وصلنى فيها عزف شاب كان يشحذ بجيثارة فى عربة المترو.. كان يعزف عزفا جيدا والعزف الجيد يجعل موسيقايا تهتاج فى داخلى..

تملكتنى رغبة عارمة فى أن أكون اللحظة هذه جالسا إلى البيانو فى حجرتى فى القاهرة أكمل لحنى الناقص والتى تريد صافيناز أن تغنيه فى حفلها فى باريس.. منذ ليلة الجريمة لم أجلس إلى البيانو. شعرت بدموعى تريد أن تسيل.. لم أبك منذ فترة.. أريد صدر إنسان عزيز أبكى عليه.. وكما لو أن الرجل الأسمر الذى وضح على وجهه التأثر من عزف الشاب

الموهوب هو هـذا الإنسان العزيز.. خطوت إليه بمشـاعرى الحزينة.. ولكى يبكى إنسـان على صـدر إنسـان.. لابـد من أن يجلس بجـواره فى جلسـة حميمة.. جلست على مقعد ملاصق له.. أبدأ حـديثى الودود بالشكر لأنه قد زارنى فى ليلـة العيد وكـان سيدا كـريما أحضر خـروفا مشـويا لضيـوف.. وشجاعا فقد أنقذنى من المرأة المخمورة وجلعنى ادخل حجرتى وأجلس إلى البيانو وألحن لحنا جمعتـه من رحيق الحب وأقول له إن لحن الحب هذا لم يكتمل لأن سيدة صرخت.

وقبل أن أتحدث فـوجئت به يهب واقفـا وينظر إلى فى عـداء لأكتشف أن باب المترو قد انفتح وأنـه سينزل من البـاب الـذى انفتح أمامنـا.. ولكنى فوجئت به يخطـو خطوات مسرعة كما لو كان يجرى منى إلى آخـر العربة.. تصورت للوهلة الأولى أن اختيارى المقعد الملاصق دون كل المقاعد الخالية حوله قد أزعجه..

فأسرعت خلفه لأطمئنه.. وأقول له إننى لم أقصد ازعاجه وما أريده هو أن أتحدث معه حديثا وديا.. ولكنى وجدتـه يقفز من العربة رغم أنه لم يكن يحتـاج إلى هـذا المترو كـان واقفـا.. ممـا جعلنى أنتبـه إلى أنـه يهرب منى واكتشفت أننى قد أخطأت.. أعامل عاقلا كما لو كان صديقا..

انـدفعت نحوه أمسكـه من خناقـه.. تصـورنى أننى قد جننت فتحـول المتصـارع صـاحب العضلات المفتولـة إلى طفل مذعور.. وأنـا ضعيف أمام الأطفال.. شعرت بلحظـة ضعف فانتهز الفرصة وقفـز إلى عربة المترو التى نزل منها لأسمع صفارة الـرحيل وينغلق الباب وأراه من وراء الزجاج يأتى ببعض الحركات المضحكة يقول لى بها أنى مجنون..

ليمضى المترو.. وأجد نفسى وحيدا فى محطـة المترو وانفجر بالضحك.. فقد اكتشفت أنه ليس الرجل الذى أريـده.. إنى أعرف الرجل الأسمر جيدا.. قلت لك من قبل ملامحه محفورة فى ذهنى وجنونـه يملأ رأسى برغم أنه لم يحدثنى.. أستطيع أن أخـرجه من بين آلاف النـاس بمجرد أن أنظـر إليه أو أسمع صوته.

وراح عمرو يضحك.. نظـر إلى أخته نبيلـة.. توقع أن تشـاركه الضحك ولكن أبصر عينيها تسحان بالدموع.. اندهش:

— تبكين ؟ !

ورفع رأسه ليجد صبرى أمامهما.. قال بصوت عال ينبهها إلى مجىء صبرى وأنها لاينبغى أن تبكى أمامه فقال:

— صبرى يا نبيلة ..

ابتلعت دموعها بسرعة وهى تسمع عمرو يقول :

— نصير الفقراء فى الشانزلزيه ؟ !

قال صبرى :

— ونبيلة تبكى فى الشانزلزيه ؟ !

قال عمرو :

— كنت أروى لها نكتة ..

قال صبرى فى شىء من الفلسفة :

— هذه هى باريس .. ضحك إلى حد البكاء !

قال عمرو بسرعة حتى لا يجعله يقول له : أريد أن أسمع النكتة :

— من الذى جاء بك إلى باريس ؟

فرقعت ضحكة صبرى وهو يقول :

— الأثرياء

— والفقراء ؟ !

— والفقراء أيضا .. فزورة .. دعنى أجلس وأمتع نظرى بحسناوات الشانزلزيه وأشرب كأسا من النبيذ الفرنسى.. اشتقت إليه.. وأحل لك هذه الفزورة

وجلس صبرى يرشف نبيذه وقبل أن يقول شيئا سمع عمرو يقول له فى سخرية:

— ورغيف خبزك ؟

انفعل صبرى وهو يقول :

— حلمت طوال عمرى أن أوزع رغيف خبزى على الفقراء.. وتعذبت كثيرا من أجل تحقيق هذا.. وتصورت — فى لحظة — أن سجنى سيجعلنى أقرب إلى الفقراء.. ولكن ..

قاطعه عمرو فى ضيق فقد سمع حديثه هذا من قبل.. وأراد أن يجعله يتوقف عنه فقال:

— واكتشفت أن سجنك جعلك تبتعد عنهم أكثر..

— وفشلنا وإن كان الرفقاء لايعترفون.. هناك خطأ ما..

وصمت للحظة، وكأنه يقول بصمته: وظللت مهموما بالبحث عن الحل..

وقال بصوت عال :

— وفجأة وجدته.. الجلباب..

— وخلعت البدلة..

— واكتشفت أننى لست فى حاجة لأن أوزع رغيف خبزى عليهم..

وشرب جرعة من نبيذه الذى لم يعد يشربه إلا عندما يكون بعيدا عن العيون وقال فى شىء من السعادة:

— الفقراء — هذه المرة — هم الذين يعطونك رغيف خبزهم لأنهم سيأخذونه ألف رغيف فى الجنة !

قال عمرو مذهولا :

— من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين .

أوشك صبرى أن يقول : ولكن ما فى القلب فى القلب ولكنه قال :

— الدنيا قد جنت .. وأمريكا أصبحت رسول الإنسانية.. والهنا فى موسكو يشحذ.. فهل أصبح العاقل الوحيد ؟!

أوشك أن يقول له : انتهازى حقير .. ولكنه سمعه يقول :

— نحن فى عصر سقوط الآلهة !!

— وعصر الشطار !

وكأنه قال : عصر النصابين .. اغتاظ منه . ولذا عندما سأله عن أخبار مصر قال له بسرعة :

— تريد رقبتك ..

وكما لو أن عمرو قد سقط من فوق جبل وهو يقول :

— أنا ؟ يقبضون على ؟ !

قالت نبيلة فزعة :
— صبرى لا يقصد ..
قال صبرى فى نبرة تحد :
— أقصد
انفعلت نبيلة قالت :
— اسكت ..
قال عمرو :
— دعيه يتكلم ..
وقبل أن يقول صبرى : النيابة أمرت بالقبض عليك قال عمرو :
— أعرف أن هناك من يريد ازاحتى من طريقى ليخلو له الجو..
قالت نبيلة فى تحد :
— لن يستطيعوا .
ابصر صبرى السيجارة ترتعش فى فم عمرو .. رد الصاع صاعين .. قال ليجهز عليه:
— المعارضة هائجة .. صحفها أعلنت الحرب..
قال عمرو بسرعة دون أن يجعله يقول : وقدموا استجوابا:
— أية معارضة ؟! التى تتاجر بآلام الناس ولم يسلم الدين منها..
أحس صبرى بأنه سيهاجم الحزب الذى ينتمى إليه فأراد أن يهرب من هجومه فقال بسرعة:
— معلوماتى تقول : لا تعود
اشعل عمرو سيجارة جديدة دون أن يطفىء السيجارة المشتعلة..
— سيضحون بك ..
قال عمرو ساخرا :
— ليكسبوا جولة مع المعارضة ..
قال صبرى :
— ويقولون أن أحدا فوق القانون حتى لو كان فناننا الكبير عمرو..
ثم قال باسما :

— ديمقراطيون !!

شعر عمرو بالتحدى فقال :

— يريدون منى أن أعود ؟ سأعود

بدا له ـ بعد أن قال هذا ـ أنه سيقوم من المقهى ويتجه إلى المطار مباشرة ويركب الطائرة إلى القاهرة.. يعرف جنونه.. أصابه الخوف.. يخسر رهانه عليه.. يريد أن يستخدمه ليرفع اسهمه عند حزبه فقال بسرعة :

— اتفقت مع بعض الأخوة على أن تسافر إلى أمريكا اللاتينية.

— قال غاضبا :

— أنا .. عمرو يهرب ؟!

— لا تغضب .. حتى تهدأ العاصفة ..

— أعيش مشردا فى العالم لمجرد أن امرأة خنقها مجهول فى بيتى !!

وجد صبرى نفسه يقول :

— عودتك تضر ..

انفعل عمرو وهو يقول :

— تضر بمشروعك الانتهازى ..

قال صبرى وقد تملكته الرغبة فى تحديه :

— بصراحة نعم .. ليلة القدر هبطت على .. المال يجرى حولى بلا حساب.. أنا فى باريس اليوم.. أقيم فى جناح فى أفخم فندق وأسافر بعد أيام إلى أمريكا ومنها إلى جزر هاواى لأحضر حفل تأسيس بنك من أكبر البنوك العالمية وأصبح عضوا فى مجلس إدارته وأعود عن طريق الشرق الأقصى.. أزور اليابان.. وأمضى أياما مع الأخوة فى الفليبين نطمئن على أحوال المسلمين..

احتواه عمرو بنظرة ذاهلة.. ليس صبرى الذى كاد أن يدفع رأسه ثمنا لإيمانه بالماركسية فقال له :

— أنت ؟!

شعر بما دار فى رأس عمرو .. تذكر قضية قلب نظام الحكم التى اتهم فيها ونجا من حكم الإعدام بأعجوبة فقال ضاحكا:

— التوبة ..

قال عمرو ساخرا :

— وهذا يرفع اسهمك..

أراد أن يغيظه فقال :

— أنـا الآن فى منزلـة رفيعـة .. الـرجل الكبير يثق بى وأنـا أحركـه كما يحرك لاعب العرائس عروسته بأصابعه من وراء ستار..

ثم قال فى زهو :

— أنا الرئيس الفعلى ..

توقع بعد أن قال عبارته أن يسمـع شيئا من الإعجاب به ولكنـه سمعه يقول ساخرا :

— لاعب فى سيرك وأقل خطأ يلتهمك الأسد !!

اغتاظ صبرى يقول لـه أنه برغم كل تجاربه فى الحيـاة فهو لم يع حكمة الزمان مثله.. فقال:

— هناك لحظة يا عمرو فى حيـاتك ينبغى أن تتوقف عندها.. وتقرر هل تمضى إلى نهاية الطريق أم تغيره ؟!

— تبيع تاريخك ؟!

أوشك أن يقول له : تبيع أمك .. ولكنه قال :

— أنت لم تعش اللحظـة التى تتمنى فيهـا أن تخرج روحك من حلقك.. ولكنها لاتخرج ولا تبقى ..

وصمت ، وكأنه قال بصمته : لابد أن آخذ الثمن..

قال عمرو كأنه فهم ما قال بصمته :

— تنضم إلى الذين سرقوا مليون مجدى.

فرقعت ضحكة صبرى وهو يقول :

— ذكرتنى بأخينـا الأبله .. الـذى لم يعرف كيف يلعب لعبـة أصحاب الملايين عندما هبط عليه المليون.. لعبها كما لو كان مازال فقيرا.

أسرعت نبيلة تقول :

— كلمنى مجدى فى الصباح وأخبرنى بأن طائرته ستصل فى الغد.. باع ذهب زوجته سهام وسيبحث عن الرجل.

قال صبرى ساخرا:

— يبحث عن خيال مئاته..

وقبل أن تقول نبيلة شيئا قال :

— الذى استولى على مال مجدى نظام.

قال عمرو فى تهكم :

— النظام العالمى الجديد !!

وكما لو أنه المسئول عن النظام العالمى الجديد ولا يسمح لأحد بأن يسخر منه فقال بسرعة: برغم من أن نبيلة لم تطلب منه مساعدة مجدى :

— سأساعده .. بشرط أن يعطينى عمرو الشرف لأقول لهم انه قد اعتزل ألحان الشيطان.

شعر عمرو بالإهانة.. أوشك أن يقول له: لأصبح الفنان التائب.. ولكنه قال فى غضب :

— صفقة ..

أسرع صبرى يقول فى نبرة ناعمة يمتص بها غضبه :

— أعرف أنك تحب أن تعيش حياة الأمراء .. سأجعلك تعيش حياة الملوك.. الرفاهية الحقيقية عندهم. لا أعرف من أين جاءوا بكل هذه الأموال.. يملكون الجنة فى الدنيا.. وأنا أحبك.. وأريد أن تدخل جنتهم وتلحن ألحان الملائكة تستمتع بالدنيا وتكسب الآخرة.

أوشك أن يقول له : أنت شيطان .. ولكنه ضحك.

قالت نبيلة بسذاجتها :

— ويعثرون على الرجل الأسمر ؟

— يعثرون على الجن..

— فى باريس ؟

— فى آخر الأرض.. امكاناتهم بلا حدود

ونظر إلى عمرو يريد أن يرى أهميته فى عينيه ولكنه أبصر نظرة ازدراء فى عينيه فقال :

— ولا استبعد أن تكون لهم علاقة بما حدث..
انخطف لون عمرو وهو يقول :
— هم الذين أرسلوا الرجل الأسمر.
وجد فرصته ليجعله يستسلم فقال :
— لا أستبعد
— أصحابك خنقوا المرأة.
خاف صبرى أن يتورط فقال :
— لا أعرف
قال عمرو بنبرة اتهام :
— أنت تعرف ..
وكأنه قال : اعترف
أفصحت نبرة صبرى عن خوفه وهو يقول :
— اعترف بماذا ؟ بما لا أعرف .وتنبه إلى أن نبرته قد وشت به فضحك كأنه يخفى نبرته الخائفة فى ضحكته.. نظر فى ساعته فهب واقفا وقد تملكه الرعب قائلا: الشيطان.. فقد حان موعده الهام مع رجال الشيطان الأكبر.
قال عمرو ضاحكا :
— الشيطان الأكبر
قال صبرى فى نبرة أفصحت عن رغبة :
— من أخبرك ؟! أنا لم أقل لأحد أننى على موعد مع رجاله..
ولم يقو على أن يقول : الشيطان الأكبر وقال :
— لا يعرف هذا الموعد سوى الرجل الكبير
وتلفت حوله حتى يتأكد أن أحدا لا يسمعه وقال فى صوت خفيض:
— طلبوا حوارا معه .. فاختارنى..
ضرب عمرو المائدة التى أمامه بقبضة يده وقال بصوت عال:
— خيانة ..
— اخفض صوتك . المقهى ممتلئة بالجواسيس ..
التفت حوله ، كما لو كان يريد أن يتأكد من أنه يوجد جواسيس فى

المقهى شعر بالخوف وهو يبصر أحد الجالسين ينظر إليه تنبه إلى أن صوته كان عاليا وهو يفشى سرا ما كان ينبغى أن يقوله لأحد حتى لو كان شقيقه الأكبر، قال فى صوت خفيض:

— أرجوك يا عمرو .. لاتخبر أحدا حتى لا يضيع كل شىء!

نظر عمرو إليه فى دهشة.. اختل صبرى.. وجد من الأفضل ألا يرد عليه.. انشغل عنه بحديث أخته معه.. تريد أن يصحبها لمشاهدة قوس النصر القريب منهما.

أبصر صبرى عربة سوداء فارهة تقف أمام المقهى.. ارتعب.. تصور أنهم يعرفون مكانه وجاءوا ليأخذوه للموعد الهام.. ضحك عندما رأى أحد الأثرياء العرب ينزل من العربة.. تذكر أنهم طلبوا منه أن تظل مقابلته سرية.. شعر بالعظمة.. صار رجلا مهما..

رجال الرئيس يجرون معه محادثات سرية.. سيلعب معهم بمهارته التى كسبها من كفاحه السرى.. يستخدم معهم أسلوب القنابل المفرقعة.. يعرف أن الأمريكان ـ برغم كل التكنولوجيا ـ مازالوا قرويين يسهل الضحك عليهم وهو ابن البلد.. الفهلوى خريج السجون.. سيجبرهم على أن ينقلوا على الفور للرئيس حديثه معهم.. يعرف مدى اهتمامه بدورهم فى المنطقة.. سيطلب أن يراه.. ويطير إلى واشنطون.. ويدخل البيت الأبيض.. ويقابل الرجل الجالس على عرش العالم..

نظر إلى عمرو يريد أن يراه فى هذه اللحظة.. أبصره يضحك مع نبيلة.. تضايق.. التفت إلى الرجل الذى كان ينظر إليه منذ قليل وظنه يتجسس عليه.. أبصره قد ترك المقهى.. ارتاح.. قال سعيدا..

توقع أن يلتفت عمرو إليه.. ولكنه أبصره مستغرقا فى الضحك مع نبيلة فقال فى صوت مرتفع كما لو كان يحتج:

— المهلبية ..

وقبل أن يكمل عبارته قال عمرو ـ وقد ظن أنه قد اشتاق لأكل المهلبية:

— اعرف محلا شرقيا يصنع مهلبية ممتازة

ظنه يسخر منه فقال محتدا:

— طبق المهلبية جاهز يا عمرو !

قال عمرو ضاحكا :

— صرت حلوانيا من وراء ظهرى !

أراد أن يغيظه فقال :

— وسألهطه لوحدى..

ضحك عمرو ضحكة مفرقعة.. لم يضحك عمرو.. وكما لو أن ضحكة عمرو جعلته يشعر بأنه قد عرى نفسه أكثر مما ينبغى.. ينبغى أن يكون حريصا حتى يحقق حلمه فى أن يصبح نجما.. النجوم فى يده.. لاينبغى أن يجعلها تطير منه بحماقته.. حلم وهو صغير فى أن يصبح نجما سينمائيا.. ولكنه فشل فى أول اختبار أمام الكاميرا..

كانت الماركسية حوله موضة العصر فقفز فى قاربها وأوغل فى بحرها حتى حافة الموت.. وهرب منها قبل أن تنهار روسيا فوق رأسه.. ليجد التيار الدينى حوله جارفا فقفز فى سفينته وأعطته خبرته القديمة القدرةعلى أن يضع المجاهد الأكبر فى جيبه.. ليجد نفسه على شاطىء البيت الأبيض.. ويلتقى برئيس الدنيا وتستقبله شبكات التليفزيون الأمريكية ورجال الصحافة ووكالات الأنباء العالمية ويهبط على مصر نجما من القمر.. ويجىء لأولاد الكلاب من أمريكا قمرا ساطعا فى سماء الدنيا.

دار رأسه بالنبيذ الفاخر.. تذكر مثل أمه زهيرة التى تردده على سمعه دائما: دارى على شمعتك تقيد.. قرر ألا يتكلم حتى تظل شمعته مشتعلة.. ولكن نفسه الملعونة تجعله يتكلم وتطفىء شمعته.. أبصر عمرو لامباليا بحديثه.. وجد نفسه يقول له:

— لن تستطيع أن تقابلنى بعد ذلك !

نظر عمرو إليه.. قال له بنظرته.. لا أريد أن أقابلك .. أراد صبرى أن يقول له: ستقابلنى ـ برغم أنفك ـ لأنى سأصبح مهما ! فقال:

— دورنا التاريخى فى هذا العالم الغارق فى الغواية.

وبعد أن قال عبارته شعر بأهميته.. ولكنه تنبه إلى أنه قال كلامه الذى يحفظه من نهايته.. أخطأ.. يصحح الخطأ.. يقوله من أوله.. استعان بيديه

زيادة فى الحرص حتى لا يخطىء مرة أخرى فقال:
— التفاهم مع الشيطان الأكبر فى عصره ليست خيانة بل ضرورة حتمية لنؤدى دورنا.
قاطعه عمرو فى شىء من السخرية:
— دورنا التاريخى فى هذا العالم
أراد صبرى ألا يجعله يكمل كلامه بهذه النبرة الساخرة فقال عبارة نابليون التى يحب عمرو سماعها: مصر أهم بلد فى العالم.. ابتسم.. نجح فى اسكاته.. قال منتصرا:
— الذى يستولى على مصر يستولى على ما حولها.. شعر بعد أن قال هذا كما لو أنه نابليون.. القائد الفرنسى المنتصر.. انتفخت أوداجه.. أصبح بطلا.. أراد أن يكافىء نفسه على بطولته بكأس.. لم يجد غير الثمالة الأخيرة.. شربها.. لاتكفى لاحتفاله بنفسه.. يريد الكثير.. طلب زجاجة نبيذ أخرى.. نظر إلى شقيقه الذى يحبه.. يريد أن يشاركه الشعور بالبطولة.. أبصره ينظر إليه فى ازدراء.. يقول له بنظرته: الماركسى أصبح عميلا لأمريكا.. عزت عليه نفسه.. يزدريه فى لحظة بطولته وجد نفسه يصرخ:
— لست خائنا ..
أخطأ مرة أخرى.. نابليون لا يقول هذا.. قال يصحح الخطأ:
— مانصنعه معهم مجرد بولتيكة.لم تعجبه كلمة بولتيكة.. نابليون لايستخدم هذه الكلمة السوقية.. يقول كلمة تليق بالبطل المنتصر فقال:
— الارهاب ..
برق الاهتمام فى عينى عمرو .. اطمأن إلى أنه صحح الخطأ فقال :
— لا يحبون الارهاب الذى يضرب مصالحهم..
ابصر الاهتمام قد خبأ فى عينى عمرو فأطلق كلماته كما لو كان إرهابيا يطلق رشاش كلماته من مدفعه فقال :
— نحن الاعتدال.. الارهاب يرفع أسهم الاعتدال.. لايهمهم من يحكم.. المهم الاستقرار.. الاستقرار فى جيبنا.. الشارع فى قبضتنا.. ارتدى الجلباب الأبيض.

وقبل أن يقول : كما أردنا.. انفجر عمرو:

— كذب .. كذب .. الشارع يخدعكم.. كل أجهزة التكنولوجيا عندهم لاتستطيع أن تصل إلى حقيقته.. يستعصى عليهم وعليكم.

ارتاح.. اهتم عمرو به .. فتح حقيبته السوداء يطمئن على دولاراته التي سيعطيها لعمرو.. وأخرج كتابا كان يخفى بعضها.فهم عمرو أن صبرى يقول بإخراجه الكتاب أنه يقرأ الكتب ليفهم المصريين فقال فى انفعال زائد:

— المصريون ليسوا فى الكتب !!

أوشك صبرى أن يقول له : أنا ابن رصيف وأعرف المصريين أكثر منك .. وأقرأ هذا الكتاب لأعرف كيف أتعامل مع الأمريكان.. ولكنه سمعه يقول:

— الإنسان الذى يحل أعقد قضاياه بنكتة لايمكن أن يتنبأ به الكمبيوتر !!

هب صبرى واقفا .. وجد شيئا نسيه وجلس ليقول:

— من أجل هذا يتصورون أنهم يستعملوننا .. ولكن فى الحقيقة نحن الذين نستعملهم.

ولوح بقبضة يده:

— نحن حزب الله وهم حزب الشيطان.

وبعد أن قال هذا شعر بالإعجاب وفى شيء من القوة قال :

— سنباغتهم فى الوقت المناسب ونهزمهم.

ومال برأسه على عمرو وقال كما لو كان يقول سرا:

— العالم لا يتسع لنا ولهم.

أبصر جاك الجارسون يحمل زجاجة النبيذ.. انزعج.. طلبها من جارسون آخر.. سيخبرهم جاك بأنه شرب زجاجتين من النبيذ فقال مذعورا:

— جاك

فى اندهاش قال عمرو :

— جاك الاسكندرانى

— أنت برىء يا عمرو

وكاد أن يقول : من أجل هذا تمثل صافيناز الحب عليك.. ولكنه قال:

— لا تصلح إلا للموسيقى

أشعل عمرو سيجارته فى عصبية.

قال صبرى :

— هل تتصور أن يكون صبرى الماركسى المتطرف على موعد مع رجال الشيطان الأكبر دون أن يكون جارسون مقهى الشانزلزيه الذى يتردد عليه صبرى عميلا لهم..

— كيف عرفت ؟

— بالمفهومية .. صدقتنى .. تاريخه ياأستاذ فى الاسكندرية كان عميلا من عملاء المحور أثناء الحرب العالمية الثانية.

ووضع جاك زجاجة النبيذ أمام صبرى

قال صبرى كما لو أن قد لسعه :

— من طلب هذه الزجاجة ؟ أنا لاأشرب النبيذ.. ألا ترى المسبحة؟ احمل زجاجتك واذهب.

قال وكأنه يصدر أمرا له :

— لا تخبرهم بأنى قد جئت إلى هنا.

وحمل جاك زجاجة النبيذ وذهب صامتا ونظر عمرو إلى صبرى وكأنه يقول بنظرته: أنت خائف؟

أوشك أن يقول له : الذى يلعب مع النمور لابد أن يخاف.. ولكنه دس يده فى جيبه واخرج عدة جوازات وقال :

— من يملك كل هذه الجوازات لايخاف.. أنا فوق القانون.. انتمى إلى حكومة عالمية.

ولوح بالجوازات التى فى يده فى وجهه وقال:

— عندما تقيم فى أمريكا اللاتينية سيكون لك مثل هذه الجوازات ولن تستطيع أن تصل عساكرهم إليك.

— تحكم على بالاعدام ؟

وأخرج صبرى صحف المعارضة من الحقيبة السوداء وألقى بها على المائدة وقال :

— ستعرف بعد أن تقرأ هذه الصحف من الذى يحكم عليك بالاعدام ؟

وقبل أن يقول عمرو شيئا.. أبصر صبرى بعض الفتيات العربيات يلتففن حول عمرو فقال باسما وهو يقوم:

— اتركك مع معجباتك ..

قالت فتاة من الفتيات :

— لسنا معجبات .. نحن أعضاء فى جمعية تكونت فى باريس للدفاع عن عمرو

ضحك صبرى وهو يقول:

— براءة .. مادام الجمال سيدافع عنك..

تلفت صبرى حوله وتحسس مسدسه وهو ينصرف .. ضاق عمرو بحديث الفتيات وقف.. توقعت نبيلة أن يحمل صحف المعارضة معه.. ولكنه تركها على المائدة ومضى.. مشت بجوار عمرو.. تنبه عمرو وهو فى حجرته.. ففتحها ليجدها ممتلئة بالدولارات.. فار الدم فى عروقه وقال صارخا:

— ثمن الخيانة !!

أرادت نبيلة أن تذكره بأنها رغبة أمه فى أن يتولى صبرى الصرف على رحلته إلى باريس ولكنها قالت :

— نسدد فاتورة الفندق.

قال عمرو منفعلا :

— سأشحذ على الرصيف ..

وبعد أن قال عبارته.. قرر أن يترك الفندق حتى لا يعرف صبرى مكان إقامته.قالت نبيلة بنظرتها.. ماذا أفعل بالحقيبة ؟

لاذ عمرو بصمته.. لا يريد أن تحدث.. يريد أن يفكر.. هل أدخلوه مصيدتهم بخنقهم هذه المرأة فى بيته.. والدهشان زعيم هذه العصابة؟ فأشار إلى النافذة وكأنه يقول بإشارته إلق بما فى الحقيبة من دولارات من النافذة.. وطلب صحف المعارضة يريد أن يقرأها.. وكما لو أن قراءة صحف المعارضة ضرورة ليعثر على الإجابة عن هذا السؤال..

أوشكت نبيلة أن تقول: تركتها فى المقهى.. ولكنها وجدت نفسها تحت ضغط الحاجة تفتح الدولاب وتخرج صحف المعارضة التى أخفتها. وراح يقرأ المقالات التى تطالب بمحاكمته بتهمة قتل المرأة.. قال لنفسه: هل هذه الحملة الشرسة جزء من الخطة ليستسلم لهم ويصبح الفنان التائب، وهذه الدولارات عربون الاستسلام؟

وجد نفسه يقفز من على السرير ويصرخ: لن يشترونى بذهب العالم.

وقفزت إلى رأسه فكرة أن يفتح النافذة ويلقى بالدولارات.. تصور منظر الناس فى الشارع وهم يتصارعون على الدولارات.. فراح يقهقه وهو يقول:

— افتحى النافذة يا بلبلتى!



أبصر عمرو صافيناز تقف أمامه وهى تقول:

— أتعبتنى يارجل حتى أعثر عليك ..

كانت لا تقول الحقيقة .. أخبرها الدهشان أن رجاله يتابعونه فى باريس وأنهم أخبروه أنه انتقل إلى فندق متواضع فى زقاق من أزقة الحى اللاتينى.. فقالت وهى تنظر حولها كما لو كانت لا تريد أن تلتقى نظرتها بنظرته حتى لا تفضحها:

— عمرو يقيم فى هذا الفندق .. ماذا جرى للدنيا؟!

أوشك أن يقول لها : هارب من صبرى حتى لا يزعجنى.. ولكنه ابتسم.. وجدت نفسها تقول ، كما لو كانت تريد أن يعرف أنها تعرف انه مطلوب القبض عليه:

— تختفى منهم؟

شحب وجهه . شعرت بأنها جرحته دون أن تقصد. خافت على مزاجه من أن يتعكر وهى التى تريد أن يصفو حتى يكمل اللحن الذى أعلنت انها ستغنيه فى حفلتها فى باريس فأسرعت تقول:

— تختفى من الصحفيين .. لك حق .. يزعجون الواحد بأسئلتهم التى لا تنتهى..

شعر عمرو كما لو أنه مراقب فقال :

— كيف عرفت أننى أقيم هنا؟

وحدقها بنظرته .. لم تستطع أن تقاوم نظرته .. وجدت نفسها تستسلم لها .. تحب فيه ضعفها .. وضعفها هو لحنه الذى لاتجده فى غيره من الملحنين .. تريد أن تجلس على عرش الأغنية .. ولحنه هو الطريق إليه .. ولكنها عندما التقت بالدهشان المليارديـر فى حفل ساهر دعاها له عرفت أن حبها للثراء لا يقاوم وهو يقول لها: كل ثروتى رهن اشارة من أصبعك ..

وشرطى الوحيد أن تهجرى الغنـاء.. فأنا لا أحب أن يشاركنى أحد فى حبك.. ودعاها إلى باريس وسافرت على طائرته الخاصـة .. واستضافها فى قصره خارج باريس.. وأهداها مفتاحه الذهبى وهو يقول لها: عربون حبى..

شعـرت من نظـرته أنها قـد خـانت عمـرو الـذى تحب فيه عبقـريتـه الموسيقية فاحتضنته..

أحس من حضنها أن شيئا غير عادى قد حدث فقال لها:

— تخفين عنى شيئا .. أعرفك .. من أخبرك بأننى أقيم هنا؟

أوشكت أن تقول له : الدهشـان ولكنها تراجعت .. شعرت بأنها أضعف من أن تعترف له بخيانتها ـ فى هذه اللحظـة ـ تعرف أنه يحبها وإذا اعترفت له ستكون قطيعة بينهما .. وهى لم تقرر بعد.. هل تتنازل عن مجدها الفنى وتتزوج ثروة الدهشان؟ فأسرعت تقول له بدلالها:

— أنت تعرف أننى شيخـة حارة باريس .. وأمضيت شبابى صعلـوكة فى الحى اللاتينى أغنى فى أزقته ومقـاهيه .. فكيف لا أعرف أين يقيم حبيبى فيه؟

شعرت بأنه يستريب فيها فقالت :

— ولا تنس أن أحبابى ..

— يراقبوننى ..

— قالت بسرعة :

— بقلبى يا حبيبى ..

بعـد أن قالت عبـارتها .. شعرت بـالخوف من أن يكون الـدهشان قـد اتصل به وأخبره بأنـه قد دعاهـا لقصره فى باريس.. فهى تعرف انـه يحقد عليه وعندما عرضت عليه الذهاب معها إلى حفلة تكريمه قال لها:

— لاأحضر حفل تكريم قاتل ..

فكرت فى أن تسأله : هل يعرف الدهشان؟ لتتأكد من أنه لم يتصل به..

فكـر عمرو فى أن يسألها : مـادامت شيخـة حـارة باريس.. هل تعـرف شيخة الحارة الدهشان؟

ولكن نظـرتـه وقعت على دراسـة نشرتها احـدى المجـلات الفـرنسيـة

بمناسبة احتفال باريس به تقول أنه أهم موسيقى فى العالم العربى المعاصر..

احتوته بنظرتها وهو يقرأ المجلة. شعرت بأنها قد أخطأت لأنها استجابت للدهشان ولم تحضر حفل تكريمه. وسمحت له بأن يقول: أحضر حفل تكريم قاتل.. وأن هذا الجالس أمامها أرق من أن يخنق عصفورة فقالت فى تأثر:

— سامحنى .. سامحنى يا عمرو .. أخطأت ..

وعندما نظر إليها قالت :

— لم أحضر حفل تكريمك ..

تنبهت إلى أنها ستقلبها دراما فضحكت وقالت :

— ولكن الدنيا حضرت .. وصحف العالم احتفلت بك ...

تملكه الخوف وقال :

— إلا صحف بلدى

وقال فى مرارة :

— يخافون من الرأى العام الذى صنعوه وشحنوه ضدى ..

قفز إلى رأسها الدهشان فقالت :

— الحقد

— وأنا أحبهم

أرادت أن تطرد الدهشان من نفسها فقالت :

— صوروا للناس أنك قد خنتهم !!

أمسك يدها فى عصبية وقال :

— وأنا لم أخن أحدا ..

ارتعبت .. خافت أن يكون بكلامه هذا يلمح إلى خيانتها له مع الدهشان فقال فى عصبية :

— أنا لم أخن ..

ابتسم .. نجمها خفيف .. ترتعب من أقل شىء .. قال يزيل خوفها:

— ومع هذا لا أملك سوى الحب .. سألحن لهم أجمل الألحان.. ليغنوا ويسعدوا .. هذا قدرى ..

ارتاحت لأنــه لم يعر لعبارتها التى قالتهــا بحماقتها أى اهتمام.. تعرف مدى طيبته.. لا يمكــن أن تتصور أنها تخونه.. جاءت الفرصــة.. تأخذه إلى قصر الدهشــان دون أن تخبره بأنه قصره.. وتــدخله قــاعة ألف ليلــة وليلة ويرى البيانو الذى قال لها الدهشان انه بيانو مارى انطوانيت ملكة فرنسا ويبهــره البيانــو الملكى ويغريــه بالعــزف عليه ولا يتركــه حتى يكمل لحن أغنيتها التى ستغنيها فى حفل باريس فقالت:

— وأنا سأغنى لك أجمل لحن فى أكبر مسرح فى باريس ..

— للأسف لم أكمله ..

— ستكمله ..

قال بنصف ضحكة :

— أنت واثقة ..

قالت بدلالها :

— لأنك لا تملك سوى الحب ..

لاذ بصمته .. تمسكه من يده التى تؤلمه.

انتهزت الفرصة وقالت :

— وصافى معك

قال وكأنه يحدث نفسه :

— تراهن على جواد مهزوم ..

فتحت حقيبة يدها . تخرج زجــاجة العطر التى أهــداها لها الــدهشان. تتعطــر بها .. تكــافىء نفسهــا على انتصارهــا عليــه. أبصرت مفتــاح القصر الذهبى فقالت:

— عندى لك مفاجأة ..

كره رائحة العطر قال :

— لاأصلح لمفاجآتك ..

— إلاقصر الاحلام

ضحك كما لو كان سمع نكتة . قالت بكل حنانها :

— أنت متعب .. وفى حاجة إلى أن تلقى بهموم الدنيا خلفك وتذهب إلى..
وصمتت ، كأنها قالت بصمتها : الجنة ..
ولوحت با لمفتاح الذهبى.
قال ساخرا :
— مفتاح الجنة ..
وقالت بدلالها :
— وأنا حواء ..
— وأنا آدم ..
— ولن اخــرجك للشقــاء .. سـأكـون أول حـواء تأخـذ آدم من يـده إلى الجنة..

شعر بأنـه لم يكن فى حاجـة إليها مثلما هـو فى حاجـة إليها الآن.. فقبل يدها برغم كراهيته لرائحة العطر وقال:

— عرفت ـ الآن ـ لماذا اخترتك دون كل النساء يا جليلتى؟..
— أول خطيئة ..
— سامحينى يا صافى ..
— بشرط أن تكف عن الأسئلة ..

لم يشعر ــ مثلما يشعر الآن ــ بحاجتـه إلى أن تنام الاسئلـة فى داخله، فمنذ ليلة خنق المرأة الشقـراء فى بيته والأسئلة عاصفة فى داخلـه.. يريد أن تخمد العاصفة ويـرتاح على صدر بحر حنون.. الدنيـا حوله بحر خضرة.. وهو وحبيبتـه موجتان يحملهما التيار إلى دنيـا بلا أسئلة.. وأغرتـه اللحظة التى بدت أنه ترف بأن يسأل نفسـه.. مادام هناك أسئلة.. فلماذا لا يسأل: ماذا تريد؟ يقول أريد أن أصبح حديقة خضراء يمرح عاشقان فيها..

تذكـر عندما كـان خياله يطير مع طـائرته الورقيـة فى الهواء وهو طفل ويحلم بأن يصبح طائرا لا تحاصره أسئلـة أمه.. تعلقت عينـاه بطائر يحلق فوق عـربتهما المسرعة.. يسبقها ليعـود.. يرقص نشوان والطبيعـة كما لو كانت سيمفونية تعزف له .. شعر بأنه توحد مع هذا الطائر.. وعندما يجوع يأكل ثمرة من شجرة .. وعنـدما يعطش يرتوى من ينبوع.. وعنـدما ينام ..

ينـام في حضن زهـرة .. ومن عـادته وهـو طفل كـان يجرى إلى أمـه لتريها فرحته .. وكما لو أن صـافيناز أمه ألقى بنفسه على صدر جنـاحها لتداعبه نسمـة نديـة بنـوم رقيق.. وفجأة استيقظ فزعـا .. ارتطم شيء بـالعربـة المسرعـة.. أبصر الطائر مـذبـوحا على الأرض .. لم تحتمل لحظتهما طـائرا يرقص حرا.. فصرخ مذعورا ضحكت صافيناز قالت:

— كان ينبغي أن ينتبه .. ومن لا ينتبه يموت !

وكانت أغنية فرنسية تنساب من راديـو العربة تقول: أنا حرة.. وراحت صافيناز ترددها سعيدة ..

تمالك عمرو الغضب وقال :

— حرية فظيع !

أوقفت صافيناز العربة بعد قليل وقالت :

— وصلنا يا حبيبي .. ليس وقت الفلسفة !

شعر برغبة في أن يبكي وهـو يرى الطبيعة تحتضن قصرا من المرمر ولا تحتمل أن يكون هناك طائر يرقص نشوان بحريته!!

فتح عبد أسود بوابة القصر ..

قال عمرو مذهولا :

— ما هذا ؟!

وكأنه قال لها : من صاحب القصر يا ست الحسن؟ فقالت :

— ست الحسن اشترطت على أميرها ألا يسأل

وكما لو أنه أصبح طفلا وراح يدبدب على الأرض بكلماته:

— أريد أن أعرف ..

شعرت بأنها أمه .. قالت لتجعل طفلها العنيد يدخل القصر :

— تستكثر على صافي أن يكون لها قصر !

قال مأخوذا :

— أنت .. ؟

خافت أن تضعف فراحت تنسج حكاية من خيالها

— نصيبي من ثـروة جـدتي .. سرفيناز هـانم .. أنـا لم أخبرك بأني لي

جدة ثرية .. جدا .. تقيم فى المهجر .. ألا تعرف أن لعائلتنا أصول تركية ؟! المحامى أرسل لى الأوراق ..

يعرف أنها ليست من عائلة غنية وحفرت حياتها بأظافرها .. أوشك أن يقول لها : أنت فقيرة يا حبيبتى .. ولكنه قال ضاحكا:

— أنت مليونيرة يا حبيبتى ..

لسعتها عبارتها .. تعرف أنها لاتجيد الكذب فقالت بسرعة:

— مليونيرة بفنك ..

وكما لو أن عبارتها قد مسته فقال بسرعة :

— لا تذكرينى بفنى ..

وقال ضاحكا :

— والا أصبحت تسكنين فى فندق الطلبة فى الحى اللاتينى !

أخرجت مفتاح القصر الذهبى من حقيبة يدها ومدت يدها به وهى تقول كما لو كانت بنت بلد :

— القصر ملكك يا حبيبى .

وتذكرت أن هذا مافعله الدهشان معها فى لحظة جدعنة فضحكت.. شاركها عمرو ضحكتها وهو يقول :

— بدلا من أن أسجن فى فندق للطلبة فى باريس .. اسجن فى قصر خارج باريس !!

تذكر الطائر المذبوح .. شعر بالصداع. طلب فنجان قهوة. جاءت القهوة.. شربها .. أمسكت الفنجان بأصابعها كما لو كانت قارئة فنجان وقالت فى جد :

— مكتوب عليك يا ولدى أن تستحم فى بحر العذاب لتطرح فنا..

توقعت أن يضحك ساخرا منها .. ولكنها وجدت علامة الجد ترتسم على وجهه .. يريد أن تستمر فى حديثها فقالت :

— ستحررك الموسيقى يا ولدى من عذابك ..

دارت نظرته فى القاعة الذهبية .. شعر كما لو أن شيئا مايعاديه.. منذ دخل هذا القصر وهو يريد أن يقول لها انه قصر الشيطان وليس قصر

الأحلام أبصر بيانو .. أسرع إليه .. يعزف عليه.. كأن نغماته قفازه الذى يلقيه فى وجه الشيطان!

غمرت السعادة صافيناز .. ما أرادته قد تحقق .. عمرو فى قصر الدهشان فى القاعة الذهبية يجلس إلى البيانو ويلحن لها .. تعرف أن جليلة هى حريقه الفنى وأنه قد اختارها لأن شيئا فيها من جليلة.. توقظ جليلة التى دفنتها فى داخلها .. ولكنها تغار منها برغم أنها قد اختفت من حياته .. شعرت بأنها تتحداها برغم أنها لم تلتق بها.. عليها أن تحبها لتجيدتمثيلها له .. ليشتعل جنونه الفنى ويستعيد الفنان الضائع ويبدع أغنية غير مسبوقة.

لقد رتبت كل شىء باقتدار. المسرح الكبير فى باريس .. والجماهير التى ستصفق لها.. والصحافة التى ستهلل لها بعد تلك والقمر الصناعى الذى سينقل الحفل الساهر لتليفزيونات العالم لم يبق سوى أن يشتعل عمرو ويكمل لحنه الناقص .. ويبدع لحنا لم يبدعه من قبل.

وقررت أن تتحدى نفسها وتصبح جليلة ..

وصارت جليلة ابنة حارة الهلالية ..

واعتصرت نفسها عشقا ورقصت له .. لتسقيه نوب نفسها قطرة قطرة وقطرتها طوفان.

ومن فرط سعادتها وهى تبصره ريشة يحملها طوفانها راحت تضحك كما لو كانت ضحكت جليلة .. وكما لو كان تائها فى صحراء عطشى .. وضحكة جليلة تتفجر ينبوعا وراح يشرب .. ويشتعل حريقه الفنى .. ويسمع جليلة تقول له: شهريارى.. ليقول لها بجنونه: ابحث عنك فى مدن الأرض .. وفى كل نساء العالم..

وتقول : ولا تجدنى ..

ويقول : واحترق كفنى فى اسطورة

حاول أن يفك قميص حبيبته فتحول إلى رماد وتشفق عشتار الحب عليه وتسقيه ماء الحياة وتطعمنى رغيف خبزها ..

وتقول : وأعود ..

ويقول بكل أشواقه .. يا بهجة البشر ..

وتهلل نفسه .. احتضن حريقه الفنى .. وذاب فى عناق طويل مع بهجة البشر .. لتسبح القاعة الذهبية من حوله فى موسيقى لم يبدعها من قبل!

وتتملكه نشوة النصر .. لقد نازل الشيطان الذى سرق فنه وانتزع منه لحنه ويقفز من على مقعد البيانو ويتمايل فى نشوة وهو يردد: عادت بهجة البشر ..

وتحتضنه صافيناز .. تريد أن تكون بهجة البشر ويذوب فى حضنها فى رقصة حالمة ..

ولم يكن أحد منهما فى حاجة إلى موسيقى تصاحبه كان كل واحد منهما يرقص على نغمات موسيقاه الداخلية.

وقالت صافيناز وهى تشرب نخب انتصارها : نسميه لحن الحب.

ويضحك عمرو كأنه يقول لها بضحكته : نسميه لحن الانتصار على الشيطان.

وكان عمرو لا يريد لـزمن أن ينتهى .. ولكن الزمن كان لابد أن ينتهى.. لتعود العربة بهما إلى باريس والخضرة راقدة فى حضن الليل ليطلع الصباح عليهما وهما يدخلان الفندق الفخم الذى حجزت فيه صافيناز جناحا لهما.

●

تملك صافيناز الشعور بأن نجاحها قد اكتمل فقد وافق عمرو على أن يقدمها على المسرح ويقود الفرقة الموسيقية .. فقالت بدلالها:

— العروسة انتهت من زينتها والعريس لم ينته!

ثقلت على نفسه .. يريد أن يتخلص منها فقال :

— اذهبى ..

خافت أن يعطيها مقلبا كعادته ولا يذهب فقالت :

— لن أصعد إلى المسرح الا معك

— لن أتأخر .

خرجت صافيناز . ارتاح عمرو لخروجها . شعر برغبة فى أن يسمع

اللحن .. وكما لو انه سيقابل جليلة .. ارتدى أحلى ماعنده.. واختار كرافتة بلون عينيها .. وتعطر بعطر يحبه .. أدار جهاز التسجيل لينساب اللحن .. تمايل فى نشوة .. اندهش من نفسه كيف استطاع أن يلحن هذا اللحن؟ نظر فى المرآة كما لو كان يريد أن يتأكد من أنه العاشق الذى لحن هذه الأغنية .. شعر كما لو أن جليلة تخرج من اللحن وترقص له .. تذكر عندما رقصت جليلة فى فرح أخيه مجدى فى حارة الهلالية. تنبه إلى أنه لم يبحث عن جليلة.. نسى أن يحضر معه عنوانها .. يتصل بأخيه كمال فى القاهرة ليخبره بعنوانها .. ولكن جليلة تقيم فى باريس ولابد من أنها قد عرفت بأمر حفلة صافيناز وستحضر ويراها ..

أغمض عينيه كما لو كان يريد أن يخفى لحظة اللقاء عن عيون الدنيا .. تذكر أنها لم تحضر حفل تكريمه .. هل غيرها الزمن الردىء؟ كانت فى هذه اللحظة .. موسيقى اللحن فى ذروة العشق .. لايمكن أن يحمل لها فى داخله كل هذا العشق .. ولا تحمل له نفس العشق .. يؤمن بأن الانسان يقابل عشقه فى الطريق. راح يرقص كما لو كانت جليلة فى الحجرة وترقص معه .. سمع رنين التليفون. لن يرد على التليفون .. لا يريد لأحد أن يفسد عليه رقصته مع جليلة.. ولكن رنين التليفون يلح .. يسكته .. قال بغضب :

— من ؟

سمع أنفاسا مضطربة ..

ألقى بالسماعة من يده .. وقال لعامل التليفون : لا أريد مكالمات تليفونية

قال له العامل : شخصية هامة تريد أن تحدثك ..

تصورها المرأة صاحبة الانفاس المضطربة .. فأوشك أن يقول: لا أريد أن أتحدث مع معجبات ولكنه قال:

— من هى ؟

سمع من يقول : الدهشان

تجمدت أصابعه على سماعة التليفون .. قال الصوت فى نبرة : أشكرك لأنك شرفت قصرى .. ولحنت أغنية الحب فى قاعة ألف ليلة وليلة!

ولم يجد شيئا يفعله سوى أن يلقى بالسماعة من يده كما لو كان شيء قد لسعه .. وراح يضحك .. شيء من ألاعيب صافيناز التى اعتاد عليها. تأخر عن الذهاب إلى المسرح فطلبت من أحدهم أن يحدثه تليفونيا بهذه المكالمة السخيفة لتستفزه ويسرع إلى المسرح غاضبا فهى تعرف أن ذكر اسم الدهشان أمامه يثيره . وتسترضيه بقبله ليدخل معها المسرح ويقدمها للجماهير لتبدأ الحفلة .. تملكه عناده .. لن يذهب إلى المسرح الا بعد أن يستمع إلى لحنه مرة ثانية .. رن التليفون .. توقع أن تكون صافيناز .. لتقول له : كنت أمزح معك . نوى أن يعنفها على مزاحها الثقيل .. تنبه إلى أنه يستمع للحنه .. يوقف التسجيل حتى لا يعطيها فرصة لتقول له اقترب موعد رفع الستارة وأنت مازلت هنا!!

وعندما رفع سماعة التليفون سمع من تقول بصوت مرتعش :

— عمرو

تصورها صافيناز تمزح معه ، وتمثل دور معجبة حتى تزيل أثر غضبه من المكالمة التليفونية .. فقال فى نبرة غاضبة :

— من ؟

— أنا

— أنت من ؟

— المنتظرة طوال العمر

تنبه أنها ليست صافيناز فقال فى نبرة حاول أن تكون رقيقة:

— من فضلك .. ليس عندى الوقت .. أنا ذاهب لأقود اوركسترا حفل صافيناز وهى تنتظرنى ..

— وأنا التى انتظرتك ربع قرن وثلاثة شهور وعشرة أيام .. وأنتظر قليلا حتى أعد الثوانى ..

وصمت للحظة ، وكما لو كان يقول لها بصمته : اخبرينى باسمك..

— لن أذكر اسمى حتى تعرفه .. إذا نسيته سأنهى المكالمة..

اعتصر نفسه وهو يقول :

— صوتك أعرفه .. ليس بغريب على ..

قالت بدلعها : وأرقص .. أغني لك موالا وأرقص في الحارة حتى تعرفني

صرخ :

— جليلة ..

انفجرت دموعا :

— ابنة الهلالية ..

قالت بدموعها :

— التي احترقت بعشقك

وتنبهت إلى أنها تبكي فضحكت ..

قال بفرحة :

— تأكدت الآن من أنك جليلة

— مازلت تتذكر ضحكتي؟

كاد أن يقول : ضحكتك شمعة عمرى ولكنه قال بلهفة:

— أين أنت ؟

— تريد أن تراني

— عنوانك

— القمر ..

— ليس عندنا الوقت الذى تضيعه

— وحفلة صافيناز ..

— تذهب إلى الشيطان ..

٩



يريد أن تطير العربة ليرى جليلة .. ولكن باريس تعانده بمطرها التى لاينزل ولايتوقف .. تمشى العربة لتتوقف .. ينظر من نافذة العربة. تبدو باريس له ـ فى هذه اللحظة ـ كما لو كانت غانية خلعت الحياء وترقص على رذاذ المطر .. ولكنه أحبها كما لم يحبها من قبل.. أعادت باريس جليلة له .. وأضاعتها الهلالية .. يضغط على الورقة التى فى يده .. يريد أن يتأكد من أن عنوان المرأة التى أحصت أيام حبه بالثوانى فى يده .. يخاف أن تبتل الورقة ويمحو ماء المطر العنوان..

شعر بالدنيا فى قبضته عاد له حظه الجميل .. مادام سيلتقى بجليلة فسيحصل على حكم البراءة وتنجو سفينة من جبل المشقة.. رن فى أذنيه صوت جليلة وهى تحدثه فى التليفون برقتها: انتظرتك ربع قرن وثلاثة شهور وعشرة أيام وخمس ساعات وأمهلنى قليلا حتى أعد لك الثوانى..

ضحك .. رنت فى أذنيه ضحكتها .. هل يمكن أن تتوحد ضحكة العاشق فى ضحكة معشوقته .. شعر بأنها لم تفارقه لحظة واحدة.. تسرى فى شرايينه .. تحدثه ويحدثها .. تقول له : تجيئنى مختبئة ويقول لها : فى أنفاسى وتقول : لتغنى الأغنية التى لم تبدعها بعد ويقول: وأسرق القمر وأخفيه بين رموشى وعندما اشتاق إليك .. أقبله!

وأيقظه السائق . وصل إلى عمارة جليلة .حمل الورد البلدى الذى تحبه فى حضنه . احتوى العمارة التى تسكنها جليلة بنظرته. تسكن حبيبته الطابق العاشر .. لو استطاع لقفز ودخل لها من النافذة. يحث عن الورقة التى كتب فيها العنوان ليعرف رقم الشقة ليضغط على الجرس لتفتح له الباب الخارجى . لم يجد الورقة. وانشغل بالورد فنسى العنوان فى التاكسى . لو كان فى حارة الهلالية لنادى على جليلة لتفتح له الباب ولكنه فى باريس. ابتسم. أبصر فتاة تبتسم له . كما لو كانت رسول العشق قال لها بلهفته:

— جليلة..

بداله وهى تفتح الباب وتخبره برقم الشقة كما لو كانت تعرف حكايته مع جليلة. توقف الاسانسير. وجد نفسه أمام شقة جليلة. امتدت يده لتضغط على جرس الباب .. ولكن يده لم تضغط على الجرس بدا لنفسه ـ فى هذه اللحظة ـ كما لو كان تلميذا خائبا يخاف أن يرى نتيجة امتحانه. سمع وقع أقدام داخل الشقة. وجد نفسه يتراجع إلى الخلف كما لو كان يريد أن يهرب ولكن باب الشقة انفتح ليجد جليلة أمامه على بعد خطوات .. ولا يعرف إذا كان قد مشى أو طار ولكنه وجد نفسه فى حضن جليلة. وكما لو أن شيئا ما أشفق عليهما وأراد أن يخفى لقاء العاشقين عن عيون الزمن فأنطفأ نور السلم ..

تمنى لو كان الزمن قد توقف وتركهما فى حضن بعض.. ولكن الزمن الشحيح ليس من عادته أن يترك لحظات ذوبان العشاق فى بعضهم البعض تطول .. غمر السلم النور وانفتح باب شقة وخرج ناس. اضطرب عمرو .. جذبته جليلة بيدها إلى داخل شقتها أبصر صورة معلقة على الجدران، كما لو أنه وجد فرصة ليهب من خجله والناس يرونه على السلم وهو فى حضنها فقال بفرحة طفل:

— صورى ؟

— لم تغب لحظة واحدة عنى ..

— وأنا سرقت القمر وأخفيته فى عينى .. وعندما أشتاق إليك.. أخرجه من بين رموشى وأقبله..

تملك جليلة الخوف ـ فجأة — خافت الا يراها كما كان يراها فى الهلالية أيام شبابها .. أيام الفراق تركت بصماتها على وجهها.. تريد أن تشغله عن التحديق فى وجهها حتى لايرى أثر الزمن عليها.. تذكرت أنها اشترت ملابس غجرية من سوق الغجر فى احدى الجزر الاسبانية .. كانت واثقة بأنها ستلتقى به يوما وترتديه وترقص له رقص الغجر .. تعرف انه يحبه.. فأمسكته من يده كما لو كان طفلها وأجلسته على وسادة فى الحجرة

الشرقية وقالت: أعددت لك مفاجأة .. وخرجت مسرعة وارتدت زى الغجر وقالت له من خارج الحجرة:

— أغمض عينيك ..

وفتح ليجدها تقف أمامه مرتدية زى الغجر. تذكر الغجرية التى التقى بها فى احدى رحلاته إلى أوربا وهى تخرج من البحر وتقول له: أنا وحبيبى نعيش فى قارب فى البحر .. لانحب الأرض .. وعندما لانجد ما نأكله أعود للشاطىء وأحمل شيئا من الطعام وأعود لحبيبى .. للبحر!

شعر كما لو كان فى حلم .. يريد أن يصبح الحلم حقيقة .. يريدها أن تتكلم يسمع صوتها أوشك أن يقول لها: نعيش فى البحر ونهجر الأرض .. ولكنه قال لها:

— أحكى لى يا غجريتى ..

— بشرط أن تغنى لى : أنا هويت .

تذكر عندما كان يغنيها لها .. أوشك أن يقول لها : نعيد الزمن الجميل ولكنه قال:

— وترقصين لى ؟

ضحكت ، كأنها تقول بضحكتها : الزمن يا عمرو .. شعر بخوفها من الزمن فقال:

— زمن العشاق لا يعترف بزمن الناس .

وبدالها كما لو كان الشاطر حسن الذى أوقف الزمن من أجل حبيبته وهو يقول :

— أخفيتك فى محارة .. فلم يقترب منك الزمن .. مازلت طفلتى الرقيقة التى تجرح خديها نسمة الربيع.

— لم أعرف انك شاعر ..

— وأنت ينبوع الشعر .

ولامست أصابعه أصابعها .. فضحكت نشوى .. وراح يعب من نشوتها ويغنى : أحبه حتى فى المنام وبعده عنى ياناس حرام..

وحملها صوته على جناحيه .. وصارت نغمة وحشية من نغمات الغجر وراحت ترقص وشعرها الغجرى يغطيها عن عيون الزمن!!

فاقت اللحظة الحلم .. ففتح عينيه على اتساعهما يريد أن يتأكد من أنها جليلة وليست عجرية البحر فقال:

— أنت ؟!

فقالت :

— أنا ..

— قادمة من أيام العشق ..

ضحكت

— لتعلميني كيف يكون العشق !

— وتعلمت يا صغيرتي ..

— ولن تطير يمامتي من بين أصابعي مرة أخرى ..

ومد يده يريد أن يمسك يمامته لكيلا تطير من بين أصابعه.. ولكنه أبصرها تطير .. فطار في اثرها لتسقط على الأرض .. ويسقط بجوارها وتتعانق ضحكاتهما وتقول الضحكات: لا وقت لأحزان الماضي..

.....

.....

تذكرت جليلة – وهي في قمة سعادتها – حزنها العميق عندما لم يعرفها في حفل تكريمه فقررت أن تنساه وراحت تجمع حبه من شرايينها خلجة خلجة لتطرده من نفسها فقالت وهي تجذب يدها من يده:

— أنا غضبانة ..

فرقعت ضحكته وهو يقول :

— يغضب القمر في ليلة تمامه ؟!

واحتواها بنظرة تقول : اتفقنا على أن لاتعكر لحظتنا بآلام الماضي.

قالت حزينة :

— نسيتني ..

وكادت أن تنفجر بالبكاء ولكنها تماسكت وهي تقول:

— لم تعرفني في حفل تكريمك برغم حرصي على الجلوس في الصفوف الأولى ..

شعر بالراحة .. حضرت حفل تكريمه. كان حزينا لأنها لم تحضر الحفل. تصور أنها نسيته فقال:

— جليلتى شاهدت حفل تكريمى ..

— خرجت بالدموع فى عينيها

ضحكت . غاظتها ضحكته فقالت :

— ذبحتها وتضحك .. لقد قررت أن تنساك ..

قال بفرحة طفل وهو يمسك يدها :

— ولكنها لم تستطع !

جذبت يدها وهى تقول فى غضب :

— لماذا لم ترنى برغم أن عينى كانت عليك طوال الحفل؟!

قال فى نبرة حزينة :

— تصورى عمرو الذى أمضى عمره يبحث عنك فى كل مكان لايراك وأنت جالسة أمامه ..

ولم تجعله يكمل عبارته ويقول : كنت غائبا عن نفسى وقالت بدلالها:

— احاطتك الحسناوات فلم تعرفنى ..

— أنت كل الحسناوات يا حبيبتى ..

— لاتضحك على ..

— صدقينى لم أحب .

وقاطعته ولم تجعله يقول : غيرك :

— وصافيناز

تردد قليلا ثم قال ضاحكا :

— لأنها تتعطر بعطرك !

نظرت فى عينيه ، كأنها تقول : عينى فى عينيك .. وجد نفسه يقول:

— جليلة .. لم أكن أستطيع أن أعيش بدونك .. أنت حب عمرى..

فتشت عن واحدة تحمل شيئا منك فوجدت صافيناز..

وصمت ، وكأنه يقول بصمته : أحببتك فيها ..

أرادت أن تقول له بدلالها : وعندما تظهر الأصلية تختفى المزيفة.. ولكنها راحت تتأمله وهو يغمر أصابعها بالقبل .. مازال طفلها الصغير .. لم تغيره الأيام .. أحست بصدقه وهو يقول:

— سامحينى ..

أوشكت أن تقول : سامحنى أنت .. لمت نفسى لأنى لم أتقدم إليك وأمسكتك من يدك وأخذتك من حسناواتك وقلت لك: أنا جليلة يا عمرو .. أخطأت الخطأ نفسه عندما استسلمت لأبى ولم أتمرد عليه ودفعت العمر عذابا .. ولكنها وجدت نفسها تصمت وتنظر إليه كأنها تستمتع بضعفه الذى وجدت فيه شيئا من ضعفها وهو يقول.

— كنت تائها ..

اغتاظت من صمتها . تمردت عليه. قالت :

— كنت أنا التائهة .. لم أصدق أنك تجلس أمامى .. عمرو الذى أنتظرته ربع قرن و... وأمسك ذراعها، كأنه أمسك كلامها بين شفتيها فصمتت قال:

— فى باريس يقيمون لى احتفالا ..

ولم تدعه يكمل كلامه ويقول : وفى بلدى يقيمون لى مأتما فقالت بفرحتها:

— كان احتفالا لاينسى يليق بعبقرية حبيبى ..

وجد نفسه يقول :

— مازلت تحبيننى ..

قالت بكل حريقها :

— عمرو ..

طفرت دمعة من عينيه . قال :

— لم أعد عمرو الذى كنت تعرفينه فى الهلالية

— انضجتك الأيام

— شىء فى داخلى مات ..

— صرت نجما فى سماء الفن ..

— أنا مطلوب يا جليلة ..

كأنه طعنها فى قلبها .. برغم أنها تعرف أن النيابة فى مصر قد أمرت بالقبض عليه . امتدت يدها بمنديلها تمسح دمعته من على خده.. أمسك يدها قال:

— تعرفين حكاية المرأة ؟

كانت تعرف حكاية المرأة الشقراء التى خنقت فى فيللته.. وقرأت كل ما نشر فى الصحف .. ومرضت وقال لها الطبيب: مرضك نفسى.. وكانت تعرف أن علاجها فى براءة حبيبها.. وبرغم أنها كانت تعرف أنه لايمكن أن يخنق عصفورة الا أن الشك كان يهاجمها فى بعض الليالى ويسرق النوم من عينيها.. تريد الآن ـ أن يطمئنها..

شعر عمرو بما يدور فى داخلها فقال:

— أنا برىء ياجليلة ..

وكأنها سمعت حكم البراءة فأطلقت زغرودة..

أراد أن يقول لها : مجنونة كما أنت يا حبيبتى ولكنه قال فى شىء من الاندهاش:

— تشكين فى أن هذه الأصابع التى تداعب أنغام البيانو يمكن أن تقتل؟

— أنا القاتلة يا حبيبى .. تركتك ..

— حبك لم يتركنى لحظة واحدة !

وكأنهما وجدا فرصتهما لأن يذوبا فى بعضهما .. فى اللحظة التى كان يحضنها .. كانت تحتضنه .. ذابا فى عناق طويل.

بدت لجليلة اللحظة كما لو كانت خارجة عن الزمن .. قادمة من زمن العشق..

بدت له جليلة كما لو كانت امرأة قادمة من اسطورة .. أغمض عينيه.. لايريد أن تتركه وتذهب .. وجد فى عينيه سيدة وهى تقول له أمام المحقق: لايوجد قاتل غيرى . فتح عينيه على اتساعهما وهو يصرخ، كأن شيئا قد لدغه: لايمكن أن تكون سيدة قاتلة..

قرأت جليلة كل مانشر عن سيدة مديرة بيته فى الصحف.. ولكنها وجدت نفسها تتخابث وتقول:

— من سيدة ؟

وكأنه يستغيث بها فقال :

— يلفون حبل الموت حول عنقها ..

أوشكت أن تقول له : لابد أنها مذنبة .. ولكنها سمعته يقول وقد تنبه إلى أن اللحظة غير مناسبة لمثل هذا الحديث فأراد أن يقول نكتة لتضحك جليلة فقال:

— سيدة هي التي أخذت مني هذا الشيء الذي افتقدته وأنا معك..

وضحك ولم تضحك جليلة .. تأكدت أن سيدة تنافسها في حب عمرو وأن عمرو يحمل لها شيئا من الحب الذي يصعب اقتلاعه.. ليست معركتها مع صافيناز .. معركتها مع سيدة .. ستقاتل حتى تنتزعه من حبها .. من حقها بعد أيام حرمانها الطويل ألا تشاركها سيدة في حبه .. وجدت نفسها تمسك يده وتضغط بعنف، تقول له: أريدك كما أنت..

فهم ما تقصده بضغطة يدها فقال وهو يجذب يده من يدها:

— سأعود لاسترد عمرو

قالت وقد شعرت بالخطر :

— لن تعود إلى الهلالية .. أخذوا منا حبنا .. ولن أتركهم يأخذونه مرة ثانية.

وعندما أبصرته غير مقتنع قالت له :

— أبي ترك لنا ثروة كبيرة تكفي لأن تجعلنا نطير كعصفورين في كل الدنيا.

أراد أن يقول لها ساخرا : لا أستطيع أن أطير يا جليلتي.. فأنا مكسور الجناح ولكنه ضحك..

فهمت ضحكته على انه يقول : أنا مهزوم فقالت بسرعة :

— حبيبي فارس .. والفارس لايهزم ..

— مادمت الفارس الذي لا يهزم .. فدعيني أعود إليهم لأنازلهم..

سأعود معك ..

— ستبقين فى باريس ..

— أريد أن أكون بجوارك ..

— أنـا المسئــول عن كل مـاجـرى .. وســأواجههم وحـدى.. وانتصر ونتزوج.

وجعلتها المفاجأة لا تستوعب كلمة نتزوج فقالت : لا

قال باسما :

— ونقيم حفل عرسنا فى الهلالية ..

وكان ينبغــى أن يمضى بعض الوقت لتستــوعب أن عمرو حبيبهـا قال: نتزوج، ونقيم حفل عـرسنا فى الهلاليــة .. لتسيل دموعهـا على خديها.. فلم تجد شيئا تقوله أو تفعله سوى أن تبكى ..

ضـحك عمرو وقال :

— تبكين لأننا سنتزوج !!

أرادت أن تقوا، لــه : لاأصدق أن الزمن الـذى سرق حبنا وعذبنا طـويلا يصفو ويجود بمثل هذه اللحظة .. ولكنها ضحكت بدموعها..

شعــر بأنــه يطير بــالأمل .. سيعـود إلى الهلاليـة ويـذهب إلى المحكمـة ويــواجه الظلم وينقـذ سيـدة من حبل المشنقة وتجىء جليلـة ويحقق حلم العمر ويملأ الدنيا موسيقى .. وخيل لـه ـ فى هذه اللحظة ـ أن شيئا من هذا لن يتحقق الا إذا تـوقفت دمـوعها وضحكت .. يـريـد أن يكون آخـر شىء يسمعه هو ضـحكتها التى يحبها فقال:

— سأرقص معك بالعصا فى ليلة عرسنا

قالت وهى تبتلع دموعها :

— ستجعلنى أرقص .

— وأحقق رغبتى التى لم أحققها فى ليلة فرح مجدى ..

قالت باسمة :

— كنت صغيرا تخاف من أمك زهيرة هانم ..

وقال فى شىء من التحدى :

— وكبرت الآن ..

وراح يرقص كما لو كان يمسك العصا بيده ..

ضحكت من قلبها سعيدة .. لقد تحقق حلم العمر .. ستتزوج من عمرو في الهلالية ..

قال ضاحكا وهو يتجه إلى الباب :

— سآخذ ضحكتك معي لانتصر عليهم !

أرادت أن تستبقيه بعض الوقت .. ولكنه خرج مسرعا .. لم ينتظر الاسانسير .. نزل على درجات السلم .. قال لها: عودى إلى بيتك يامجنونتى واستعدى لعرسنا فلن تزفى وأنت ترتدين زى الغجر!! أرادت أن تقول له : انتظر حتى ترى ملابس العرس فقد اشتريت فستان الفرح .. ولكنه كان قد نزل ..

وعلى باب العمارة .. كانت الدموع التى قاومها عمرو وهو يحدث جليلة قد انتصرت عليه .. بمجرد أن خرج إلى الشارع انفجر باكيا.. وبداوهو يمشى فى الشارع كما لو كان صبيا قابله العشق ـ فجأة ـ فى الطريق فراح يبكى كما لم يبك من قبل...

الهلالية ١٠

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

شعر عمرو وهو يلتقى بصافيناز وهى محاطة بباقات الورود فى جناحها الفاخر فى الفندق كما لو أنه قد بكى لأنه دفن عزيز!!

لم يجد شيئا من مشاعر الغضب فى نفسه وهو يسمع عبارة: أين كنت ياروميو؟ كعادتها عندما تسخر منه من اقبال النساء عليه..

كان من المعتاد أن ينفعل .. ويدافع عن نفسه .. ولكنه وجد نفسه

— فى هذه المرة - يقول فى نبرة باردة كما لو كان انسانا آخر:

— عند جليلة !!

يعرف أنها تتضايق من ذكر اسم جليلة . يغيظها . أرادت أن تغيظه فقالت كما لو أنه سألها أين كنت؟:

— أنا كنت عند الدهشان !

ضحك عمرو كما لو أنه سمع نكتة .. فوجد نفسه يقول :

— وكيف حاله ؟!

اغتاظت من رده .. ذكرت الدهشان لأنه ذكر جليلة .. كان اسمه أقرب الأسماء إلى ذاكرتها فقد كان آخر من حدثها فى الليل.. قالت:

— يهديك السلام ..

فقال فى برود :

— وأنا مشتاق لرؤياه !!

لم تستطع صافيناز أن تتحكم فى أعصابها أكثر من ذلك فضغطت على أزرار جهاز التسجيل بعصبية.. تريد أن تنهى حالة البرود التى سيطرت عليه إلى حد أنه لم يهتم بسماع أخبار استقبال الناس للحنه على غير عادته. لقد ظلت مستيقظة بعد أن عادت إلى الفندق . تنتظره فى لهفة لتحكى له عن نجاحها الذى فاق تصورها وتحتفل معه بميلادها الحقيقى وعودته لفنه .. لتجده يعود فى الصباح لاليعتذر لأنه لم يف بوعده وقاد الفرقة الموسيقية

بل ليحدثها فى بـرود ويغيظها بذكر اسم جليلة .. فكـرت بسرعة .. سيذهب بـروده عند سماع الجماهير تهلل لمقـدمتـه الموسيقية وتطلـب من الفرقـة الموسيقيـة اعادتها .. رفعت صـوت جهاز التسـجيـل والفرقـة تعيد عـزف المقدمة الموسيقية.

رن فى رأس عمرو الصوت الذى قال له فى الفندق أنه الدهشان.. وشكره لأنـه شرف قصره ولحن أغنيـة الحب فى قـاعـة ألـف ليلـة وليلـة.. فأوقف التسجيل.

كانت الجماهير ــ فى هذه اللحظـة ـ تطلب من صافينـاز أن تعيد بـداية الأغنية فقالت تداعبه :

ــ تغارمنى ..

قال فى نبرة حادة وقد تقمص هيئة محقق :

ــ طلبت من أحدهم عندما تأخرت عن الحضور للمسرح أن يحدثنى فى التليفون ..

تذكرت أنه لم يحضر فقالت فى نبرة ساخرة :

ــ وأنت استجبت لـرغبتى وحضرت بسرعـة ووقفت بجـوارى على المسرح وقدمت الفـرقة الموسيقية وسـاعدتنى لأن أظهـر على خشبة المسرح بالصورة اللائقة!!

قال متضايقا :

ــ أنا لا أهزل .. طلبت من أحدهم ..

ــ لم أطلب

ــ تكذبين

عز عليها أن تسمع كلمة تكذبين .. فى هذه اللحظة التى تشعر فيها بأنها فى فـرح .. لم تفقد الأمل فى أن تجعلـه يعود إلى طبيعتـه المرحة فتضـاحكت وهى تقول:

ــ أنا لاأكذب فى الصباحية !

ــ صافيناز ..

ــ افندم ياسى عمرو

— قال الذى حدثتى انه الدهشان
لم تستطع أن تكتم ضحكتها
قال عمرو فى غضب :
— ليس وقت الضحك
— وقت الغم .. اتفضل
— قال لى الصوت الذى طلبنى : اشكرك لأنك شرفت قصرى..
وكأنها وجدت فرصتها لتجعله يضحك .. فرنت ضحكتها وهى تقول:
— قصر جدتى المرحومة سرفيناز هانم
— أنت لك جدة بهذا الأسم ؟
— صدقتنى يارجل .. كنت أمزح معك ..
— من صاحب القصر ؟
قالت :
— الدهشان ..
تأكد عمرو ـ فى هذه اللحظة ـ انه انسان آخر .. لأنه لو كان عمرو وذكرت زوجته أنها على علاقة بالرجل الذى حول حياته إلى جحيم لسقطت الدنيا فوق رأسه .. ولكن الدنيا لم تسقط فوق رأسه وقال فى نبرة هادئة:
— الدهشان صاحب قصر الأحلام ..
وجدت الفرصة لتضخم منه لتجعله يقبل أن يكون مستشارا للشركة الفنية التى يريد أن يكونها من أجل سواد عينيها فقالت:
— الملياردير ..
— تاجر السلاح ؟
— لاأعرف
— ومتى تعرفت به ؟
— اتصل بى وطلب منى احياء حفلة فى قصره فى مصر
— لم تخبرنى ..
— لم أتعود على أن أخبرك بأسماء الذين يدعوننى لإحياء حفلاتهم ..
وأنت كنت قد سافرت إلى باريس ..

— وذهبت إلى الحفلة ؟

— وأعجب بفنى

— ودعاك للسفر إلى باريس

— وسافرت على طائرته الخاصة

— واستضافك

— فى القصر الذى رأيته

— أعطاك مفتاحه الذهبى

— مجاملة لطيفة

— وكنت هنا فى باريس وهم يكرموننى ولم تحضرى

— اخطأت لأنى ...

— أكملى .. الدهشان يكرهنى .. لاتخفى عنى شيئا ..

— قال لى : لاأحضر حفل تكريم ..

وصمتت

قال :

— قاتل

وقعت نظرتها فى نظرته فشعرت بالتعاطف معه فقالت :

— قطع لسانه ..

— اذن كنت تعرفين أنه يكرهنى ؟

— مثل هذا النوع من أصحاب المليارات يشعر بأنك أغنى منه عندما يعجز عن تلحين لحن واحد ناجح تصفق له الجماهير .. عادى أن يكره..

— عادى أن يكرهنى .. وهل استدراجى إلى قصره من الأمور العادية؟

— كنت أريد أن أوفر لك الجو الذى يشعل فنك وتكمل اللحن..

أوشك أن يقول لها : ورقصت لى .. ولكنه قال :

— وهذا من مصلحتك ..

— ومن مصلحة حبيبى عمرو أن ينتصر على الذين يريدون أن ينتهى..

— وأبدعت لحنا جعل النقاد يشيدون بك ويقولون انه نقطة تحول فى حياتك الموسيقية..

— ألا تعرفين ماجرى فى فيللا المعادى ؟
— ما فعله أولاد الحرام
— ولا تعرفين أن الدهشان من أولاد الحرام ..
— الدهشان ؟!
— وانني أمضيت كل أيامي فى باريس أبحث عنه ..
— لم تخبرنى ..
— ولم يخبرك بأنه قد التقى بى فى حفلة أقيمت على شرف..

وكأنها وجدت فـرصة لتسجل عليـه نقطة فى الاتهام الـذى توجهـه إليه دائما بأنه دون جوان فقال:

— وجعلت أحب امرأة إلى قلبه تتمرد عليه ..
— من أجل هذا ينتقم منى ..
— الذى ينتقم لايفرح بنجاحك فى لحنك ويريد أن يقيم حفلا كبيرا لنا.
— هذا شأن رؤساء العصابات .. يقتلون ويمشون فى الجنازات!
— أنت واهم .. تتخيل أشيـاء لاأصل لها .. أؤكـد لك أن الـدهشـان لاعلاقة له بما جرى

انتابه الشك فى أنها تعرف شيئا وتخفيه عنه فقال:

— ما الذى جعلك تؤكدين ؟!

صمتت فقال لها :

— اتكلمى ..

ضحكت . قال :

— ما الذى يضحكك ؟
— اكتشفت أنك تصلح محققا .. عرفت الآن انك درست الحقوق..

قال يحاصرها :

— لاتهربى .. اتكلمى
— خبرتى يارجل .. فى الرجال

اقترب منها وهو يقول :

— ماذا تقول لك خبرتك ؟ أى نوع من الرجال ؟

— رجل صاحب مزاج ..

قال بسرعة :

— دموى

وكأنها وجدت الدليل على براءة الدهشان فقالت بسرعة :

— الذى يتذوق لحنك لايمكن أن يكون صاحب مزاج دموى!

— المجرم العتيد يتخفى وراء مثل هذه الأمور

تملكها الغضب لأنه يفكر بهذه الطريقة فقالت :

— لماذا يرسل رجلا يخنق امرأة ؟

قال بسرعة :

— ينتقم منى لأنى جعلت فتاته التى يحبها ترفض أن تخرج معه عندما أراد أن يترك الحفلة وجلست لتستمع لى وأنا أغنى ألحانى..

وكأنه قال : لقد وقعت فى غرامى .. اغتاظت منه فقالت :

— ما رأيك لو قلت لك أنها تزوجته وهى أم ابنه الوحيد ؟!

وجد نفسه ينفعل ويقول : كذب .. كذب .. كما لو أن دليل البراءة سينهار لو صح أنها تزوجته !

تضايقت من نفسها لأنها قالت ما جعله ينفعل فقالت إشفاقا عليه:

— أعصابك

تصورها تسخر منه قال وقد ازداد انفعالا :

— هناك جريمة ولابد من قاتل والدهشان هو القاتل والسبب هو الانتقام سأثبت هذا للمحكمة.. صحيح أن حارسه هو الذى ارتكبها.. ولكنه كان مجرد أداة.. الدهشان هو الذى قرر وخطط وأمر بالتنفيذ لتتم الجريمة ظنها الجريمة الكاملة ولكنها الجريمة الخائبة.

وضحك وهو يقول :

— ينتقم منى .. ولكنه انتقم من نفسه !

وكأنها هى القاضى .. لم يجد اقتناعا بما قال على وجهها فقال فى نبرة كما لو كان يستعطفها:

— أنا فنان لم ادخل طوال عمرى قسم شرطة.. والآن تصدر النيابة

أمرا بالقبض على.. لماذا؟ عندهم سيدة.. وسيدة اعترفت بأنها القاتلة.. فلماذا تنتظرني الشرطة في المطار لتقبض على وتضعني في الحجز مع المجرمين؟

وانفجر بالدموع..

شعرت صافيناز كما لو كان طفلها.. لم تره منهارا مثلما تراه الآن..

أبصر الاشفاق في عينيها فقال :

— تعذبت كثيرا.. أبحث عن الرجل الأسمر ليعترف على الدهشان ويكون الدليل القاطع.. وكلما أبصرته وجريت في أثره وجدته سرابا.. وذقت مرارة أن أنفى نفسي بعيدا عن بلدى حتى لو كنت في بلد أحبها.. كرهت باريس التي اعشقها ياصافيناز!

وبعد أن نطق باسم زوجته.. تنبه إلى أنه لاينبغي أن يضعف أمامها فلم تعد — بعد ظهور جليلة — زوجته.. صارت امرأة غريبة ينبغي ألا يبكى أمامها.. فأخرج منديله ليمسح دموعه.. اندهش وهو ينظر إلى منديله.. لم يجد أثرا لدموعه.. دموع كاذبة.. تذكر أنه قد بكى بكل دموعه عندما خرج من عند جليلة في الصباح الباكر وهو يمشي في الشوارع.

أحست صافيناز برغبة جارفة في أن تأخذه في صدرها فاحتضنت أصابعه بأصابعها وقالت بحنانها:

— الأصابع التي أبدعت لحن صافي لا يمكن أن تخنق عصفورة!!

أحس بالراحة وأصابعه في أصابعها وقال باسما:

— منذ كنت صبيا.. وأصابعي لاتعرف سوى الموسيقى.. لاتستطيع أن تفتح علبة سردين!

وضحك نصف ضحكة، وكأن ضحكته قد نبهته إلى أنه ينبغي أن يقابل الدهشان ويرى أصابعه فلابد أنها أصابع قاتل!!

فكرت صافيناز في أن تجعله يلتقي بالدهشان ليتأكد بنفسه من أنه ليس الرجل الذي يعتقده فقالت:

— دعاني الدهشان ليحتفل بنجاحي..

— وذهبت ؟

— كيف اذهب وزوجى غير معى.. لقد أجل الاحتفال بنجاحنا إلى موعد تحدده.

تذكرت أنه نام الليلة خارج الفندق وتركها وحيدة فقالت:

— لماذا فعلت بى هذا ؟! قلت لى اذهبى ولن أتأخر ولم تحضر.. قلقت عليك واتصلت بالفندق فقيل لى أنك خرجت بعد مكالمة تليفونية. قال:

— جليلة التى كلمتنى..

وكأنه لم يقل شيئا فقالت :

— قلت لنفسى لابد أنها مكالمة نسائية .. ولم أسأل عن التى حدثتك حتى لا أغير دمى.. ولا أعرف كيف أغنى..

نظرت فى عينيه..

— أريد أن أعرف من هذه المرأة التى جعلتك تترك صاق ؟!

قال بنبرة بدا أنه يحتج عليها لأنه ذكر لها اسم جليلة أكثر من مرة:

— قلت لك : جليلة

كأنه أطلق رصاصة عليها.. قالت:

— جليلة

وبعد أن قالت : جليلة وجدت فى عينيه ضحكة.. تصورته يسخر منها فقالت:

— تحلم بجليلة..

وكأنها قالت له كيف قابلها؟ فراح يحكى لها كل التفاصيل.. قال:

— بعد أن ذهبت إلى المسرح.. ارتديت البدلة السوداء الجديدة واخترت كرافته بلون عينى حبيبتى.

أوشكت أن تقول له: لون عينى بلون قطتى مشمشة ولكنها اشعلت سيجارة وهو يقول:

— وتعطرت بالعطر الذى تحبه.. وأحسست برغبة فى أن استمع إلى الأغنية.. أدرت جهاز التسجيل.. واندهشت وأنا استمع إلى لحنى هل أنا العاشق الذى لحنته ؟!

فقالت بسرعة:

— لأن صاف اشعلت لك شموعها ورقصت لك..

واستطرد قائلا :

— وسمعت جرس التليفون .. توقعت أن تكونى المتحدثة.. فرفعت السماعة وقلت انتظرينى حتى اخفض صوت التسجيل العالى.. سمعت من تقول: انتظرتك خمس وعشرين سنة و..

وقاطعته .. لا تريد أن تسمع بقية الحديث:

— وذهبت إليها ؟!

وقبل أن يقول شيئا قالت كما لو كانت تحدث نفسها :

— خرجت من القبر ..

لسعته عبارتها فقال بسرعة:

— وجدتها كالبدر..

قالت فى عصبية :

— الزمن لا يمكن أن يترك القمر بدرا..

— الزمن لا يقترب من امرأة تحب حبا صادقا..

ضحكت ضحكة رنانة .. وقالت :

— على كل حال .. شيء لا يهمنى.. سأبقى الأصل.. فأنا صاف.. وبعد أن قالت: أنا صاف.. تنبهت إلى أنه أهانها بخيانته لها.. تثار لكرامتها وتقول: وأناقبلت دعوة الدهشان وركبت طائرته الخاصة وأمضيت ليلة فى قصره.. ولكنها تراجعت.. خشيت أن تجرحه فهو أرق من أن يحتمل مثل هذه الكلمات فقالت بدلعها:

— لم تر ما فعله المعجبون معى بعد أن انتهت من الغناء.. أحاطونى بالزهور وعبارات الإعجاب.. وكتب أحدهم قصيدة يتغزل فى جمالى قال اننى كوكب الزمان وزهرة الدنيا.

وفتحت حقيبة يدها وأخرجت ورقة بمبى وهى تقول له: سأقرأ لك قصيدة الغزل.

وأبصرت فى عينيه حزنا عميقا. وكما لوأنها قد اكتشفت اللحظة حزنه وألمه فشعرت بقلبها يتمزق.. لايمكن أن ترى عمرو يتألم وهو الذى حقق

لها كل هذا النجاح.. فمزقت القصيدة كما لو كان تمزيقها سيجعله لايحزن ولا يتألم!

قال عمرو مندهشا :

— لماذا تمزقينها ؟ أريد أن أسمعها ..

تعرف أنه يقول هذا الكلام من وراء ظهره فهو يحبها ويغار عليها.. لن تتركه يضيع منها.. ستقاتل من أجل أن تحتفظ به.. وتعيد دفن جليلة فى قبرها بطريقتها الخاصة.. قالت بشيطانيتها:

— لا أحب أن يشاركك أحد فى حبى !

تذكرت أنها قالت للدهشان بعد انتهاء الحفلة أنها لن تترك عمرو فعرض عليها صداقتها فقالت له: بشرط أن يوافق زوجى.. تضاحكت وهى تقول:

— بدأت أصدق أن الدهشان ينتقم منك

وضح الاهتمام على وجهه وهى يسمعها تقول :

— تصور أنه بملياراته يمكن أن يشترى قلبى.. طلب منى أن أتركك ليتزوجنى.

ضحك عمرو .. اغتاظت من ضحكته.. قالت : وكأنه سألها: ماذا قلت له؟!

فقالت :

— قلت له أنا أحب زوجى..

ابتسم عمرو ولأنه ابتسم قال :

— السيدة التى تحب زوجها لاتركب طائرته الخاصة وتذهب إلى قصر أحلامه وتأخذ مفتاحه الذهبى.

كما لو أنها انتصرت :

— تغار على يا حبيبى ..

هز رأسه كما لو كان يقول : نعم

طارت بالفرحة

— أعرف أنك أحببت كل النساء اللائى عرفتهن فى صاف.. وقبل أن

تقول له وجليلة لا تهمنى لأنها واحدة منهن.. سمعته يقول:

— عندى مفاجأة لك..

— هذا ماتوقعته .. تنفذ وعدك لى.. نمضى شهر العسل الذى أجلناه كثيرا.. فى رحلة حول العالم.. الوقت مناسب الآن بعد نجاحنا الذى تتحدث الدنيا عنه.

استدارت ابتسامته .. قال :

— أنت طالق يا حبيبتى !

ضحكت .. احتضنته بضحكتها.. عمرو عاد إليها.. تخلص من بروده واسترد مرحه.. تحتفل به احتفالا خاصا.. تشعل له الشموع وتغنى له وترقص..

أراد عمرو أن يقف ليخرج.. فالمرأة التى فرقعت ضحكتها ـ منذ قليل ـ لم يعد له علاقة بها .. فقد قال لها : أنت طالق ياحبيبتى.. ولم تعد حبيبته.. ولكنه وجد شيئا يشده للجلوس.. ويشعره بعجزه عن الوقوف وكما لو أنه أراد أن يخفى عجزه بسماع مقدمة لحنه التى طالبت الجماهير من الفرقة الموسيقية بإعادتها.. فطلب منها أن تدير التسجيل.. وراح يصغى باهتمام للأغنية.. وعندما ارتفع صوتها بالغناء قالت:

—لا أصدق أنه صوتى !! وقبل أن تقول ماذا فعلت بصوتى؟ وجد عمرو نفسه تقول:

— صوت الشيطان !

—ضحكت صافيناز ضحكة رائقة فقالت :

— ولحنك لحن ملاك .

وكأنه وجد سببا ليجعله ينتصر على إحساسه بالعجز.. فالملاك والشيطان لايجتمعان.. فوقف وضحك كطفل كما لو كان هذا ضروريا ليجعله يذهب.تحب صافيناز ضحكة الطفل فيه قالت وهى فى قمة السعادة:

— عندما تكون على طبيعتك .. لا يباريك أحد فى خفة ظلك.

نظر فى عينيها.. شعر بالخوف.. هب واقفا.. تصورت أنه سيخرج ليعود ولكن عمرو كان قد ركب الأسانسير هربا من امرأة تمص روحه.

أصغت إلى صـوتها المنبعث من جهـاز التسجيل.. فشعـرت بـالثقـة فى نفسهـا لايمكن أن يتركهـا عمـرو حتـى لـو ذهب إلى جليلـة.. لقـد ذاب فى صـوتها.. تريد أن تؤكد لنفسها هذا فرفعت صوت التسجيل.. ملأ الحجرة.. أحست بالنسوة.. وصوتها يفترس لحن عمرو.. شعرت كما لو كانت تطير.. تقيم حفلها فى جنـاحها.. يكـون مفاجأة لعمرو عنـدما يعـود.. يحب عمرو الورد الأبيض.. تملأ الجناح بالورد الأبيض.. تـذكرت أنها قد تزوجته دون أن تقيم حفلا لعرسـهـا.. تصبح الليلة ليلة عرسها وتضع الطـرحة البيضاء على رأسها.. رنت فى رأسـها زغرودة الفرح.

الهلالية ١١

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

ذبلت الورود . لم يعد عمرو . تقف صافيناز . تمشي في الحجرة تقلب في أشياء لا أهمية لها . تضغط على زرار جهاز التسجيل. تشعل سيجارة. تسمع صوتها وهي تغني. توقف صوتها. تريد أن تسمع موسيقى عمرو . تذكرت عندما أخذته إلى قصر الدهشان وقالت له انه قصر جدتها. ضحكت. نظرت في المرآة. أبصرت وجهها بلا مكياج . تكره الورد الذابل. تركت السيجارة تسقط من بين أصابعها. رفعت سماعة التليفون. تصرخ في عامل التليفون: لاأريد أن أرى الورد الذابل. سألت: هل طلبها عمرو؟ وقبل أن يجيب عامل التليفون قالت : لاأريد أن أسمع صوته لم تشعر بحاجتها لعمرو مثلما هي في حاجة إليه الآن .. تريد أن تحكي له كيف رتبت رحلتهما حول العالم لتمضية شهر العسل.

أصغت إلى تصفيق الناس إلى موسيقى عمرو. يحبون موسيقاه. عرفت كيف تختار فرسها. راهنت عليه وكسبت رهانها. لن يطير عصفورها من يدها حتى لو انتظرت جليلة العمر كله. تطلعت في المرآة. احتوت نفسها بنظرة زهو. صافي التي جعلته يعود إلى فنه وليست جليلة.

اعتصرت نفسها عشقا ورقصت له وسقته ذوب نفسها قطرة قطرة.. ومازالت في ريعان شبابها. ترتدي زي الغجر الذي اشتراه لها من احدى الجزر الاسبانية والتي كانت ترفض أن ترتديه وتقول له: جسدي جسد هانم لا يلامسه سوى الحرير. ستكون مفاجأة له. ان ترتدي الجلباب المزق .. تريد أن ترضيه .. أخطأت في حقه .. لم تصنع ما ينبغي أن تصنعه الزوجة لزوجها..

كانت تستطيع أن تطلب من المسئول الكبير أن يأمر باغلاق ملف هذه الجريمة.. وهو لايرد لها طلبا ولكنها لم تفعل .. تذكرت عندما لم تعط لكمال شقيق عمرو ما طلبه من مال ليخلصه من هذه الورطة فقد تملكتها

رغبة شريرة فى ألا يعثروا على الرجل الأسمر الذى خنق المرأة حتى تشنق سيدة مديرة بيته فقد غارت من حبها له. شعرت بالغضب من نفسها .. خلعت ملابسها وراحت تلقى بها فى أنحاء الحجرة .. نظرت إلى جسدها فى المرآة .. كما لو كانت تريد أن ترى الشيطان الذى يسكن جسدها وتشعر به وهو يصارع روحها التى تعشق الموسيقى .

تذكرت أمها وهى تقول لها: جسدك شيطانك.. وروحك روح ملاك.. وسيدمرك شيطانك .. ضحكت .. كما لو كانت تقول لأمها بضحكتها: لاتخافى أعرف كيف الاعب شيطانى .. تحب أن تكون فى ظل رجل يحكم .. وتسكن القصور وتنعم بالثراء .. وتحلق فى بستان الانغام .. شربت فنجان قهوتها الباردة رشفة واحدة كما لو كانت تشرب كل هذا مرة واحدة. شعرت بأن القهوة بلا مذاق ..

طاف فى رأسها عندما قال لها المسئول الكبير الذى تحلو لها أن تسميه الدكتاتور الصغير: سأجعل الدنيا تركع تحت قدميك فذهبت إلى عمرو وتزوجته .. رنت فى رأسها عبارة عمرو وهو يقول لها: انت طالق يا حبيبتى.. لايمكن أن يترك عمرو من تتبتل فى ألحانه .. ولكنها أغضبت عمرو.. أخطأت فى حقه .. استجابت لدعوة الدهشان وسافرت على طائرته الخاصة وأقامت فى قصره .. ولم تخبره بأن الدهشان ترك لها القصر ونام فى مكان آخر ..

كانت حمقاء .. أرادت أن تثير غيرته.. ستعترف له بأنها قد أخطأت وتطلب منه أن يغفر لها حماقتها ويساعدها على أن تشفى من حماقتها .. رنت فى رأسها عبارته وهو يحدثها عن جليلة ويقول: وجدتها كالبدر لتقول له وقد شعرت بأنه يغيظها : الزمن لايمكن أن يترك القمر بدرا. تطلعت فى المرآة .. جمالها ربانى .. لايحتاج إلى أصباغ .. فكيف تخاف من امرأة انتظرت ربع قرن؟!.. ولكن عمرو أين هو الآن؟ لابد أنه عندها .. لايغيب عن صاف دون أن يكون عند جليلة حبه القديم لابد من أن يعود لها. لايستطيع أحد أن يعيده لها سوى دكتاتورها الصغير .. تذكرت رقما .. قال لها : عندما تريديننى .. اطلبيه .. اهبط عليك من أى مكان أكون فيه فى الأرض ..

أدارت الرقـم.. لايرد .. ظلت ممسكـة بالسماعة تسمـع رنين التليفون كما لو أن رنينه المتصـل سيجيء لها بدكتاتورها الصغير ليعيـد لها عمرو من عند جليلة!!

●

ورن جرس التليفون . جرت يدهـا إلى سماعة التليفون . رفعتها بسرعة. توقعت أن يكون عمرو . لايطيق البعد عنها أكثر من ذلك.. قالت بلهفتها:

— أخيرا .. طلبت ..

سمعت قهقه ديكتـاتورها الصغير . استفـزتها . غطت صدرهـا العارى وهى تقول فى غضب كما لو أنه أبصرها عارية:

— كيف عرفت أننى هنا ؟!

— أين ستذهبين منى ؟!

قالت بسرعة لتذكره بأنها تركته وتزوجت عمرو :

— أنا سيدة متزوجة ..

ضحك . قال بنشوة النصر :

— سابقا .. سابقا يا حبيبتى !!

— ماذا تقول ؟!

— ورقة الطلاق لم تصلك بعد !

— عمرو طلقنى ؟!

— خرج من عندك للسفارة وطلقك وركب الطائرة للقاهرة..

وكما لو كانت تحدث نفسها قالت : اذن ما قاله لى : أنت طالق يا حبيبتى كان صحيحا .. ولكنه كان يبتسم .. لايمكن أن يطلقنى وهو يبتسم ..

واختنقت بالدموع ..

قال فى تأثر :

— تبكين يا حبيبتى .. دمعتك تمزق قلبى .

قالت كما لو أنه المسئول عن دموعها :

— أنت السبب ..

أوشك أن يقول ساخرا : أنا لم أتزوج عمرو .. ولكنه قال:

— المعلم ..

— لاتنطق ..

— لاتنطقى أنت .. حتى يسمعك ولاأجدك فى باريس أو غير باريس.

وصمت للحظة وقال :

— وأموت ..

ثم قال :

— أنا لاأستطيع أن استغنى عنك يا حياتى ..

قالت غاضبة :

— أنا لست زجاجة عطر تتعطر بها عندما تريد ..

— أنت عطر كل النساء

— شبعت من كلامك المزوق ..

اغتاظ من عبارتها فقال :

— عمرو فى السجن

كأنه طعنها فقالت :

— عمرو برىء

يغيظها :

— أعرف ياحبيبتى أنه برىء .. أرق من أن يخنق عصفورة..

— لماذا أدخلوه السجن ؟

قال ضاحكا :

لأنه دخل حارة الغول

صمتت ، كأنها تقول بصمتها : أى غول .. فقال فى سذاجة:

— أنت .. مندهشة ؟!

سأحكى لك الحكاية .. كان هناك صبى .. أعطته أمه قرشا وطبقا وأرسلته لبائع الفول ليشترى فولا .. فدخل حارة الغول..

قالت : لاأفهم .. وكأنها قالت : أى غول .. قال سعيدا كما لو كان طفلا:

— أنا هذا الغول .. أنا غول .. تسألينى .. ماذا كان مصير الصبى؟ مصمص الغول عظامه ..

وضحك . انفعلت صافيناز .. قالت :
— لاتستطيع ..
قال فى نبرة وشت بغدره :
— اشنقه لك حتى أؤكد لك أننى استطيع ..
صرخت : لا ..
مست صرختها قلبه . يخاف عليها من نسمة الهواء . فقال :
— لاتخافى يا حبيبتى .. أنا غول طيب القلب
وكأنها انتهزت الفرصة فقالت :
— اعرف انك تحبه
— أحب فيه الفنان .. أنت لاتعرفين أننى أحلم بأن أكون طبالا فى فرقة موسيقية ..
— ولكنك عذبته ..
— عذبت فيه العدو الذى دخل مياهى الاقليمية ..
وضحك
تذكرت أن عمرو قال لها أن الدهشان كان وراء ماجرى له فقالت كما لو كان يعرف هذا :
— والدهشان ؟
— رجل من رجالنا ..
تضايقت من اجابته .. أرادت أن تغيظه قالت :
— يريد أن يتزوجنى ..
كما لو أنه لم يسمع ماقالته فقال :
— الذى جرى فى فيللا عمرو كان صدفة .. امرأة صعلوكة تجرى وراء الفنانين تناولت جرعة من المخدرات لم يحتملها قلبها فماتت..
قالت كما لو كانت تنتزع اعترافا ببراءة عمرو :
— صدفة .. كان من الممكن أن تموت فى أى مكان آخر..
وقال فى شىء من البلاهة :
— وانتهزتها لتأديبه ..

— اذن هذه التمثيلية كانت من تأليفك واخراجك والدهشان يؤدى دورا

ضحك . وقال :

— أتعرفين من أين أحدثك ؟ من القاعة الذهبية ..

— قصر الأحلام ..

هذا القصر غرفة عملياتنا السرية فى أوربا ..

— فهمت .. لماذا عاملنى الدهشان بكل هذا الأدب..

— الدهشان ذئب .. ولكنه أمامك كان حملا .. لأنه يعرف أنك حقل الغامى الذى ضاعت خريطته..

أوشكت أن تقول له : سأنفجر فيك ان شاء الله ولكنها قالت:

— لم أكن أعرف انك مجنون ..

ولم يتركها تكمل عبارتها وتقول : إلى هذا الحد .. وقال:

— مجنون صاق .. أتعرفين لماذا اتصل بك؟

— لتشمت ..

— أنا فارس ياصاق ..

أوشكت أن تقول : الفارس لايعذب عصفورا كعمرو.. ولكنها قالت:

— ماذا تريد أن تقول ياحضرة الفارس؟

— مهما قلت .. كلامك أحلى من العسل على قلبى..

— افندم يا حبة عينى..

— منشور وصل المعلم عن علاقتى بك .. وأعطاه لى وسألنى عن مدى صحته .. فصمت

— برافو

— ومعنى صمتى أننى اعترفت له بعلاقتى بك

— وماذا قال ؟

— صمت .. ومعنى صمته أنه وافق

— وسنتزوج ..

— بعد أن تصلك ورقة الطلاق

— ومن قال لك أننى سأتزوجك ؟

— ترفضين الزواج منى ياصاف ؟
— لأنك جبان ..
— أنا فارس ..
— لو كنت فارسا حقا لقلت لمعلمك أنا أحب صاف وسأتزوجها بالصوت العالى .. وعلى استعداد لأن أضحى ..
قاطعها :
— اترك العرش ..
— الذين يحبون يضحون بالعرش ..
— أعرف أنك تحبين أن تجلسى بجوارى على العرش ..
— من أجلى ..
— من أجل عيون حبيبتى ..
— بشرط
— اشرطى يا ديكتاتورتى الكبيرة .
— أن يحضر المعلم حفل زواجنا ويوقع على العقد ويراه العالم.
— بشرط ..
— اشرط ياديكتاتورى الصغير ..
— تغنين لى وحدى ..
— شهريارى ..
— شهرزادى ..
— وتتركنى عند صياح الديك كعادته .
— هذه المرة لن أفعل
قالت بدلالها :
— لاأثق فيك .
— ستثبت لك الأيام أن ديكتاتورك الصغير .. أصبح كبيرا ..
وصمت للحظة وقال :
— لاتخبرى أحدا بحديثنا هذا
— سر عسكرى

— ولا تتركى الفندق

قالت ساخرة :

— تمام يا افندم ..

تنبهت — بعد أن قالت عبارتها ـ انه سيسجنها فى باريس كما سجن عمرو فى مصر .. تملكها الغضب .. رغبت فى أن تقول: الحب أن تخنقنى.. ولكنها وجدته قد أنهى المكالمة دون أن يقبلها فى التليفون كعادته بعد كل مكالمة .. لابد أن المعلم قد دخل عليه فجأة.. وخاف أن يعرف أنه يحدثها .. جبان .. وهى لاتحب أن تكون رجلها جبانا حتى لو كان سيجلسها على عرش مصر.. يريد أن يحبسها فى قفص وهى التى خلقت لتكون عصفورة محلقة.. وعمرو هو الذى جعلها عصفورة مغردة .. قفز عمرو إلى عينيها وهو يجلس إلى البيانو فى القاعة الذهبية ويعزف نغماته التى جعلتها تحلق مع جماهيرها .. لايمكن أن توضع هذه الأصابع الذهبية فى قيد حديدى .. شعرت بروحها تختنق .. وجدت دموعها تسيل على خديها .. شعرت برغبة جامحة فى أن ترى عمرو. تطير إلى مصر الآن . وتذهب إليه فى سجنه . وتبكى على صدره . وتخبره بكل ماقاله الفرعون لها وتقول له: أنا السبب فى كل عذابك وتطلب منه أن يغفر لها وعمرو أرق من أن يحتمل دمعة تسيل من عينيها.. وتأخذه من يديه بعد أن تسمع حكم البراءة وتذهب معه إلى الهلالية وتحتفل مع أهله به وتغنى له .. ولكن الخوف قد هاجمها ـ فجأة ـ سيعرف هذا الفرعون أنها تركت الفندق وسافرت إلى القاهرة وذهبت إلى عمرو فى سجنه.. فيغضب وهى لاتعرف — هذه المرة ـ ماذا سيصنع ؟ ربما يجعله يدفع عمرو وهى تريد عمرو حتى لو أرسل لها ورقة الطلاق .. لن تسافر إليه إلا بعد أن يصدر حكم البراءة .. ولكن أليس من الأفضل أن تخبره بكل ماقاله لها الفرعون حتى تساعده على انتزاع حكم البراءة؟ تريد أن تراه.

الهلالية ١٢

الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية



الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية الهلالية

دخل عمرو حجرته فى فيلا المعادى وأغلق الباب على نفسه.. وتنفس.. بدا لنفسه كما لو أنه دخل حجرة ألحانه ليتنفس هذا النفس العميق. سمع صوت سيدة مديرة بيته يصل إليه من وراء الباب المغلق.لم يصدق أذنيه. فتح الباب . يريد أن يراها بعينيه ليتأكد من أنها قد خرجت من السجن وتجلس وراء بابه.

قالت سيدة: تريد شيئا ياسى عمرو . لم يقل شيئا . أغلق الباب وضحك بصوت عال . تذكر العرافة التى ذهب اليها خارج باريس قبل أن يعود إلى مصر وقالت له : ارجع .. دفعت الثمن. شعر بالسعادة. ضرب بأصابعه على البيانو . اهتز جسده مع نغماته .. انقذ سيدة من حبل المشنقة . العدل الذى تعلمه من دراسته فى كلية الحقوق واحساسه بالظلم وهو منفى فى باريس جعله يصرخ وهو يسمع سيدة تقول وهى فى قفص الاتهام : أنا القاتلة ..

يصرخ بكل خلجة من خلجاته لاياحضرات القضاة.. سيدة بريئة تريد أن تموت من أجلى لأنها تحبنى .. وإذا كان أحد قد أذنب فهو أنا . أنا القاتل. اشنقونى ولا تشنقوا سيدة .. ودوت كلمة البراءة .. لتنفجر قاعة المحكمة بكلمة العدل .. ويصبح ريشة فى طوفان حب الناس.. الذين كانوا يملأون القاعة ..

تصور وهو فى قفص الاتهام أن الناس يعادونه.. استجابوا لحملة الكراهية التى قادها البعض ضده .. ولكنه فوجىء بحب الناس وهى تحمله على اعناقها كما لو كان زعيما وليس فنانا .. وجد دموعه تسيل على خديه . أبصر أمه بلا دموع وهى تجلس بجواره فى العربة .. أخذ منها الكثير .. ولكن لم يأخذ منها هذه القوة التى يواجه بها لحظات ضعفه .. تملكه الضعف برغم أنه شجع نفسه لتكون قوية أمام أمه فى هذه اللحظة فقال :

— تصورت وهم يضعون القيد الحديدى فى يدى أننى لابد أن أكون القاتل!!!

توقع أن تحضنه أمه كما كانت تفعل وهو صغير ولكنها لم تفعل . قال ليستدر عطفها :

— أنا قاتل يا أمي ؟!

قالت وكأنها لم تسمع ماقاله :

— أخوك صبري حدثني من أمريكا قبل أن يصدر الحكم وقال أنه رتب كل شيء وأن حكم البراءة سيصدر !

أوشك أن يقول : صبري نصاب ولكنه سمعها تقول في صوت خفيض كما لو كانت تذيع سرا :

— ومجدي سيسترد مليونه ..

ضحك . تضايقت أمه من ضحكته . قال كما لو كان يبرر ضحكته:

— ما علاقة أمريكا بالبراءة ؟ المحكمة حكمت بالبراءة لأنني لم أخنق المرأة وأقتنعت بأن سيدة قالت انها القاتلة لأنها تحبني..

وقعت نظرته في نظرة أمه شعر بالخجل من كلمة تحبني فقال:

— الناس يحبونني يا أمي .. حملوني على أكتافهم كما لو كنت زعيما.

لم يعجبها كلامه فقالت :

— صبري أصبح صاحب نفوذ في أمريكا .. عقد مؤتمرا صحفيا.. واذاعته الوكالات العالمية.

شعر بالاعياء . تثاءب . أشعلت الأم سيجارة . تضايق من الدخان. فتح نافذة العربة . قالت الأم :

— ينتظرونك في الهلالية ..

وجد نفسه يقول - برغم شوقه للهلالية - :

— سأذهب إلى المعادي ..

أحس أنه أطفأ فرحة أمه في أن تراه الهلالية وقد استرد اعتباره. قال ليبرر لها ذهابه للفيللا.

— أنا متعب وأريد أن ارتاح ..

شعرت الأم بقلبها يتمزق .. تسببت في تعبه .. سمحت له بأن يترك

حضنها ويذهب بعيدا عن يمينهـا .. أرادت أن تصرخ فيه وتقول: لن تذهب للمعادى مـرة ثانية .. ولكن قلبهـا لم يطاوعها.. يحتاج إلى حنـانها ـ الآن ـ أكثر من أى وقت مضى .. قالت بحنانها:

— أهلك يا حبيبى يريدون أن يفرحوا بك ..

شعر عمـرو بأنها تخنقـه بحنانها .. تعـامله كما لـو كان مـازال طفلا. ماحدث له كـان سببه انه جعل الناس يتدخلون فى حيـاته.. لن يسمح لأحد بأن يتـدخل فى حياتـه ـ بعـد الآن ـــ حتى لو كـانت أمه فقـال فى شىء من الحدة:

— لن أذهب للهلالية !

وبعد ان قـال عبارته .. تضـايق من حدته .. لاتستحق أمـه التى عذبها بجنـونه أن يكلمهـا بهذه الحدة .. شعر بـالخجل من نفسه.. تجنب النظـر اليها .. ولكن نظرته سقطت فى نظـرتها برغمه .. فأبصر العجز على وجهها .. تعود أن يراها شـابة تقاوم الزمن.. حزنها عليه جعلهـا تستلم للزمن، شعر بـالألم الـذى أحس بـه بعـد أن صرخ فى المحكمة وهـو يقـول: أنـا القـاتل اشنقونى ولاتشنقوا سيدة.. يعاوده .. حاول أن يخفى ألمه وهو يقول:

— أنا أحب الهلالية يا أمى .. وأنا فى باريس كنت أعد الأيام لأعود وأرى أهلى.

شعرت بألمه فى صـوته .. مـاتعرض له فـوق طاقـة احتماله.. أرادت أن تفرحه فقالت:

— علقوا الزينة بمجرد أن عـرفوا بخبر عودتك من باريس .. لم ينتظروا الحكم ..

أوشك أن يقول : أخطـأت فى حقهم .. تصورت أنهم سبب حرمـانى من جليلة .. ولكنه قال:

— طيبون ..

أبصر أمه تنظر إليه نظرة فـاحصة فخاف أن تسأله عن سبب ألمه فقال ليهرب من سؤالها :

— اشتقت لحمامى ..

وكأنه قال : اشتقت لحمامك ..

فـرحت . تذكـرت عندمـا كـانت تحرص على أن يأخذ حمامـه فى حضن رعايتها وخاصة فى ليلة العيـد دون كل اخواته، وكأن تذكيره ليلة العيد بأن اقتربت سيجعله يقبل الذهاب معها إلى الهلالية.. فقالت:

— ليلة العيد ..

قفزت جثة المرأة إلى عينيه فقال فى فزع :

— لاتذكرينى بليلة العيد ..

تنبهت إلى انه قـد تذكر الحادث فغضبت تريـد ابنها قويا فقـالت له كما لو كانت تصدر له أمرا :

— عمرو .. لابد أن تنسى ..

ضحك .. يقول بضحكته : انسى ماذا ؟ انسى الجنون؟

وتوقف عن الضحك ليقول بنبرة حادة :

— ما هو الجنون يا أمى؟

— أن تذهب إلى المعادى وتترك أمك ..

وكأنها قالت : وتترك حمام امك ..

— أنا كبرت يا أمى ..

— أنت فى حـاجـة إلى حمام أمك السـاخن .. لتنتعش وتسترد نفسك وتحتمل السهـر مع أهلك فى الهلاليـة .. سهرتهم للصبـاح .. ارهقـوك. الله يجازى من كان السبب!

لاتريد ان تذكره بمن كان سبب ارهاقه فقال ضاحكا :

— وأين الملابس الجديدة؟

وكما لو انه يسأل سؤالا جادا قالت :

— أم عمرو لم تنس .. اشتريت لك ملابس العيد ..

قال وهو يتذكر أيام طفولته :

— واعلقها على السرير أمام عينى واستيقـظ فى الصباح لأجد مجدى قد ارتداها ..

قالت باسمة :

— كان دائما يطمع فى ملابسك ..

وتنهد عمرو وهو يقول : ليت تلك الأيام قد دامت ويطمع فى كل ملابسى.

— لاتقل هذا .. الأيام القادمة أجمل .

وسقط فى صمته .. أرادت ان تخرجه من صمته فقالت :

— تصور .. مجدى الذى كان يطمع فى ملابسك يوزع ملابسه الآن على الناس ..

— المليون الطائر .. علمه الكرم ..

— تغير كثيرا .. يبعثر كل مايصل إليه من مال ويقول: الفقر أكبر ثروة.

— ربنا يديم الفقر عليه !!

قالت فزعة :

— فال الله ولافالك .. صبرى أكد لى أن المليون سيعود ..

لايريد أن يسمع اسم صبرى فقال :

— أنا أحب مجدى وأتمنى له الخير ..

قالت الأم كما لو أن المليون قد عاد :

— سيقيم احتفالا كبيرا حلاوة المليون .

وكأنها تذكرت شيئا تريد أن تخبره به فقالت :

— وليمة صباح العيد ستكون خرافا مشوية .

تذكر الخروف المشوى الذى أحضره الرجل الأسمر الذى خنق المرأة فانزعج.

قالت الأم فى دهشة :

— وغرامك باستخدام يديك فى تقطيع الخروف المشوى. واستخراج أطيب مافيه واطعام اخوتك.

قال فى ألم حقيقى :

— الخروف المشوى ادخلنى السجن !

وكما لو أن الأم قد عرفت اللحظة ان ابنها قد دخل السجن فانفجرت بالبكاء ..

هزه بكاء أمه .. أراد ان يجعلها تكف عن البكاء وتضحك فقال:

— تبكين لأن ابنك خرج من السجن ؟!

وفتح زجاج العربة وصاح :

— أمى ياناس تبكى لأنى حر .

ضحكت الأم وهى تقول :

— مازلت صغيرى الشقى

وقبل يدها وهو يقول :

— الصغير الذى يعذب زهيرة بشقاوته ..

احتضنت يده بيديها .. شعرت بالسعادة .. لم تسمعه ينطق باسمها منذ فترة فقالت :

— بل يسعد زهيرة بشقاوته ..

●

خرج من الحمام . فوجىء بحجرته غاصة بالورد الأبيض. تعرف سيدة أنه يحب الورد الأبيض فملأت حجرته بباقاته التى أرسلها الأصدقاء والمعجبون بمجرد سماعهم بخبر البراءة. شعر بالبهجة إلى حد البكاء. يريد صدرا حنونا يبكى عليه. يشكو له الظلم الذى وقع عليه. أحب الناس وفتح لهم باب بيته ليأكلوا ويشربوا ويسعدوا فأدخلوه السجن . امتلأ رأسه بصوت باب الزنزانة وهو يغلق عليه وروحه تكاد تخرج من حلقه . ويصرخ ولاأحد يسمعه كما لو كان فى صحراء . يريد أن يكلم أحدا . سمع صوتا فصاح بلهفته :

— من ؟

سمع الصمت . قال مستعطفا :

— تكلم . أنا فى حاجة إلى من يسمعنى ..

سمع صوتا يعرفه فقال بفرحته :

— أنت ؟

— صاحبك القديم

— من كان لايفارقنى فى سن الصبا وأنا حالم بعالم من الموسيقى.. أين كنت كل هذا الزمن ؟

— فى داخلك ..

— ولاتسمعنى صوتك ..

لأنك لم تكن تريد أن تسمع ..

— وتتركنى للشيطان

— أحببت الغواية ..

— سرقوا جليلة ..

سمعه يضحك

قال :

— تسخر منى ..

— لأنك لم تدرك ما كان ينبغى أنه تدركه ..

— جليلة ملهمتى ..

— ودورها أن تشعلك ..

— واحترق ..

— وتضىء ..

— وأعانى ..

— قدرك ..

— وأفتش عنها فى كل النساء ..

— وتسقط فى بحر الشهوة والفن براءة

— لست فتى فى اسطورة

— أنت فنان ..

— أنا انسان ..

— وبكارة الفن وشهوة الحياة لاتجتمعان ..

— يحاكموننى على جريمة لم ارتكبها ..

— ارتكبت الجريمة الكبرى ..

— لم أخنق المرأة ..

— خنقت البراءة ..

— وأتعذب كل هذا العذاب ..
— بقدر ما تأخذ بقدر ما يكون العذاب ..
— لاتبك .. بحار الدموع لا تطهر فنانا من خيانة فنه ..
وكما لو انه قد سمعه يقول : تطهر فى بحر الناس فقال :
— جليلة عادت .. التقيت بها فى باريس .

●

وصله صوت سيدة مهللا :
— الأميرة ..
قال بكل لهفته :
— جليلة ؟
— الأميرة العربية ياسى عمرو
شعر عمرو بالاحباط فقال منفعلا :
— لاأريد أن أرى احدا ..
— تحمل هدايا كثيرة ..
— لااريد هداياها .. كفى ماجرى لى ..

لم تفهم سيدة علاقة هدايا الأميرة التى تعودت ان تحملها فى كل مرة تزوره بما جرى له فهى تعرف انها تحبه وهو يحمل اعزازا لها ويستقبلها دائما فى حجرة ألحانه لمنزلتها الخاصة .. فوقفت تنظر إليه .. تتوقع ان تسمعه يقول لها : أدخلى الأميرة .. ولكنها سمعته يقول : لن يشترونى بكل نفطهم ..

وكما لو أن ما قاله لاعلاقة له بالأميرة التى يحمل خدمها الهدايا فقال:
— أدخل الأميرة ؟
فصرخ عمرو : اغلقى الباب يا سيدة ..

وبعد ان اغلقت سيدة الباب شعر بأنه أصبح قويا .. كان قد قرر وكاميرات الصحفيين تصوره وهو يقف فى قفص الاتهام أن يودع حياته الماضية المسئولة عن هذه اللحظة التى تمنى فيها ان تبتلعه الأرض ولا تصوره الكاميرات وهو يقف فى القفص الحديدى.. ولكنه أحس وهو

يـدخل من باب الفيلـلا ويلتقى بذكـريات مـاضيه فى حجـرة ألحانه بأنـه أضعف من ان ينفذ قراره..

وعندمـا سمع صـوت اغلاق باب حجـرته عليـه شعر بـأنه انتصر على ضعفه.. ضرب بأصابعه بقوة على البيانـو ليؤكد انتصاره.. يريد أن يسترد أيام صباه عندما كـان يؤمن بأن الغنى الحقيقى هو الاستغناء .. فاستغنى بنـاس الهلاليـة عن الـدنيـا .. عـاش راهبـا بين أهل الهلاليـة البسطـاء .. يشـاركهم أفـراحهم وأحزانهم ويقـاسمهم اللقمـة والضحكـة من القلب .. وعندمـا يشعر بأنه قد امتـلأ بفطرتهم السخية يجرى إلى حجرتـه ويغلقها عليـه ويجلس إلى بيانـو أمـه القـديم ويعزف.. لايعـرف الليل من النهـار.. وعندما يأخذ مايريد من ينبوع فنه الذى لاينضب يجلس اليهم.. ويسمعهم مـاأخـذه مـن فيضهم .. فيهللـون بـآهـاتهم ويسكـرون من نشـوتهم.. ويحيطـونه بـالحب .. وحبهم الـزائد جعله يشعـر بأنـه مدلل فهـو مغنى أغنيتهم وأن من حقه أن يعلن عن حبه غير مبال بتقـاليدهم فهو يعرف أنهم لايعترفون بحب لاينتهى بمأذون وفرح.. وهو قد تزوج أغنيتهم ..

وفى ليلـة فـرح أخيه مجدى .. قبّل جليلـة بعـد أن رقصت .. ولم تغفـر الحارة له هذه القبلة المحـرمة.. وحاصره أهلها بنظراتهم فى ذهابـه وإيابه .. ونظراتهم جارحـة كالصقور عندما يغضبـون من أجل ما يمس شرف بنت من بنـات الحارة.. ولـولا أمـه زهيرة التى يعتبرونها أم الحارة وينـزلـونها منزلـة خاصة فى نفوسهم ـــ وهو ابنها ـــ ماسمحوا له بـالبقاء فى الحارة.. ولأجبروا أسرة جليلة على أن تـرحل فى الظلام .. واعتبروا هـذا عقابـه .. لقد اغتالـوا حبه .. لم يخطىء عندما لم يستجب لأمـه للذهاب معها للهـلالية .. فلابد أنهم قد قرأوا ما نشرته الصحف عـن حياته الخاصة وما اظهرته كما لو أنه دون جوان عصره .. لن يغفروا له هذا.. تـذكر ماقالته له أمه من أنهم علقوا الـزينة لـه .. فضحك ساخرا.. امسك صـورة قديمـة لأمه وهى تقف كالشجرة الظليلة وسط أسرته.. حدق بنظرته وجه أمه الصارم الذى يخفى طيبته.. ووجـد نفسه يخاطبها كما لو كـانت تقف أمامه : أنت طيبـة يا أمى ولاتعرفين الهلالية كما أعرفها أنـا .. لم ينظروا اليك بنظراتهم الجارحة كما

نظروا إلى بهـا بعـد أن قبلت جليـلة فى ليـلة فرح مـجدى !

وقبل صـورة أمه وهو يقـول : حارتك يـا حبيبتى لاتغفر نـزوات ابنك حتى لو علقوا له الزينات !

وأراد أن يضع الصورة التى التقطها لأسرته فى مناسبة سعيدة مكانهما بجوار فـراشه .. ولكـن نظرته سقطـت على وجه أخيـه صـبرى عندمـا كان صغيرا. أبصر بـراءة الأطفـال فى عينيه .. انـدهش.. لايمكن أن يكـون هـذا الوجه البرىء هو وجه صبرى الذى كان يجلس معه فى مقهى الشانزلزيه فى بـاريس وتمتلىء عيناه بـالخديعة ويقـول فى انتهـازية: نـريد أن نحكم يـا حبيبى .. وراح يفكر فى صبرى كيف يغير فكره من النقيض إلى النقيض كما يغير مـلابسه؟ بـاع فكره فى شبـابه للشيطـان الأحمر وعندمـا غربت أيـام شيطـانه الأحمر ارتـدى رداء الـدين وحج لأمـريكا .. الشيطـان الأكبر كما يقول لتبـارك توبته .. وتصنـع منه نجما فى عصر الأقمار الصناعيـة ليعود بحلم الصعـود إلى القلعـة كما لـو كـان أميرا مـن أمـراء المماليك فى عصر الاحتلال العثمانى .. وأمريكا هى الامبراطورية العثمانية !!!

تذكر أمه وهى تقول له : صبرى اخوك حدثنى من أمريكا وقال انه رتب كل شىء وأن حكم البراءة سيصدر ..

اغتاظ من نفسه لأنه لم يقل لها ماكان يريد ان يقوله : صبرى نصـاب..

أراد أن يتخلص من غيظه فلعب بأصـابعه على البيانو .. تقافـزت أمامه نغمات أغنية صـافيناز التى لحنها لها فى باريس .. تملكته رغبة فى أن يسمع تصفيق الناس الحار .. قفـز أمام عينيـه وجه صـافيناز وهى تبكى عنـدما دخل عليها فى حجـرة مأمور السجن.. تصورها تبكى لأنـه ارسل لها ورقة الطلاق.. أوشك أن يقول لها: لافائدة من البكاء . ولكنه سمعها تقول :

— أنا قادمة لأعترف لك ..

أصغى اليها وهى تقول :

— أنـا سبب عذابك .. تعـرف أن الفرعـون يحبنى .. وأنه غضب لأننـا تـزوجنـا .. ووجـد فـرصتـه فى حـادث المرأة لينتقـم منك .. هيج عليك الصحافـة.. واستغل صلة أخيك كمال برجـاله وأخبرك بأن رجـلا صاحب

نفوذ تحتاجه المصالح العليا فى عقد الصفقات الخطرة وراء الجريمة .. ويتصادف أن تكون قد التقيت بالدهشان تاجر السلاح فى حفلة وغضب منك بسبب امرأة كانت فى صحبته وقيل لك أنه لن يغفر لك هذه الاهانة .. وتصورت أن رجل المصالح العليا هو الدهشان .. الذى دبر ماحدث فى ليلة العيد لينتقم منك .. وصارت قضيتك البحث عن الرجل الأسمر الذى كان فى صحبة المرأة القتيلة .. ليعترف .. وتقدم الدليل الذى يلتف حول عنق الدهشان .. وتسافر إلى باريس .. وتلمح رجلا وأنت جالس فى مقهى بالحى اللاتينى .. ويخيل لك أنه الرجل الأسمر وتطارده فى المترو وتكتشف أنه ليس الرجل ..

ويتصادف أن يكون الدهشان على علاقة بالفرعون .. ويستخدمه فى اقناعى بالسفر إلى باريس على طائرته الخاصة وانزل فى قصر الأحلام ويعطينى مفتاحه الذهبى وأدعوك للقصر لتكمل لحنك الناقص الذى سأغنيه فى حفلى فى باريس وتسألنى من صاحب القصر ؟ فأمزح معك وأقول : جدتى مرفيناز هانم! وأنا أعرف انك تعلم اننى من أسرة ليست غنية . وأوقظ جليلة فى داخلى التى تزوجتنى من أجلها وأعتصر نفسى عشقا وارقص لك ليشتعل حريقك وتفرغ من لحنك ..ولكى تكتمل لعبة الفرعون .. يتصل بك الدهشان ليشكرك على تشريفك قصره .. ولم يكن قصره .. كأنه قصر العمليات السرية فى أوربا الذى يشرف عليه الفرعون .. وتغضب وتتصور أننى قد خنتك مع الرجل الذى حول حياتك إلى جحيم دون أن تعرف أنه لاعلاقة له بما جرى فى الفيللا وأنه لايتجاسر على الاقتراب منى لأنى لغم سينفجر فيه! لأن الفرعون يحبنى.. وينتصر الفرعون وتطلقنى فى اللحظة التى كنت أرتب فيها لرحلة شهر العسل المؤجلة نمضيها حول العالم!

تذكر يا عمرو .. عندما عاتبتك لأنك لم تحضر حفلتى فى باريس. وسألتك عن المرأة التى جعلتك لا تحضر فقلت لى : جليلة.. وقلت لك : شىء لا يهم سأبقى الأصل .. فأنا صافى!

فى الحقيقة كنت أقول هذا من وراء قلبى .. فقد قررت أن أقاتل من أجل

أن احتفظ بك وأعيد دفن جليلة فى قبرها من جديد..

وقال لى الفرعون انك فى السجن .. وحكى لى حكاية خائبة عن الصبى الذى أرسلته أمه ليشترى فولا فدخل حارة الغول ليمصمص عظامه. وليشتعل فى داخلى جنون امرأة لا أعرفها ..

تصورت - فى لحظة - أننى أحببتك لأنك أجلستنى على عرش الأغنية ولكنى اكتشفت بعد أن قال الفرعون أنه مصمص عظامك أنك قد أغرقتنى فى بحر لا أعرفه من قبل وأنا امرأة كثيرة الأسفار فى بحار الحب..

قالت لى عرافة وأنا مغرمة بقراءة المجهول : مكتوب عليك يا امرأة ان تعرفى الحب جمرا !!

وضحكت لحظتها ساخرة فالحب عندى لعبة !

سيدة التى تجلس على باب حجرتك التى تسجنك فى حبها وعندما وجدتك ستخرج من سجنها قالت : أنا القاتلة .. لتسجنك فى دمها!

أما أنا التى وجدت نفسها غارقة فى بحر من دموعى .. أريد أن أحررك من سجنك لتنطلق عصفورا مغردا بأعذب الألحان لايهمنى أن تشرب من أى نبع أو من أى زهرة ترشف رحيقك .. المهم أن تغرد بألحانك لأن هذا شفاء حبيبى من عذابه!

أنا أعرف أن جليلة هى حريقك الفنى .. لذا أقول لك .. عد لجليلة لتملأ الدنيا فنا .. وتنتصر على الفرعون الذى حقد عليك لأنه فشل فى أن يكون طبالا يجلس وراء راقصة .. فأراد أن يغتال الفنان الذى فى داخلك بعذابه لك القضية ليست زواجنا .. بقدر ماهى حقده على نجاحك الفنى الذى يذكره بفشله .. فأدخلك القفص الحديدى ليختنق الفنان فى داخلك .. ومن أجل هذا تزوج جليلة.. ليعرف أن طائر ألحانك لايموت .. وتنتقم من عذابه ..

أتعرف يا حبيبى .. معنى أن تقول صافى هذا .. معناه .. أن نبوءة العرافة التى قالت لى - ذات يوم - مكتوب عليك يا امرأة أن تعرفى الحب جمرا .. قد صدقت !

قدر صافى أن تحترق .. لتضىء شمعة حبيبها بجمرها !

أحبت الأرض السماء فأمطرت السحب .. وأحبت الجبال الأرض

ففاضت الأنهار والعيون .. هذا ما يقوله الصوفيون أما أنا فأقول: أحببتك ففاضت عيونى بدمعها جمرا !!

قال لى الفرعون : لا تتركى الفندق .. فتركت باريس وطرت إليك.. شىء واحد كان يجعلنى أتردد كنت خائفة أن يشتعل حقده ولا يجعلك تخرج من سجنك .. ولكن شيئا فى داخلى قال لى: اذهبى واخبريه بما قاله الفرعون لى حتى يعطيه قوة ليدافع عن نفسه وينال البراءة التى يستحقها وينهزم الفرعون ..

وعندما طلبت مقابلتك .. عرفت أن تعليماته قد سبقتنى .. فقد عرف جواسيسه الذين يتابعون خطواتى أننى سأزورك فى السجن.. ولم يستطع أن يمنعنى لأنه لايقوى على معارضة رغبتى.. فاستقبلونى كما لو كنت امرأة لفرعون .. لاتندهش.. سأتزوج الفرعون .. استجاب لشروطى وسيحضر المعلم حفل زواجى وسيكون شاهد عقد زواجنا .. وسأرتدى فستان الفرح وأسمع الزغاريد .. وتنشر الصحف صورنا والمعلم معنا فى صدر صفحاتها..

سأتزوج الفرعون لأعذبه وانتقم منه من أجل حبيبى..

نظر فى مرآة حجرته وهو يردد عبارة صافيناز: سأتزوج الفرعون لأعذبه..

وراح يقهقه .. وتوقف عن القهقهة فجأة وراح يفكر فى دور الصدفة فى حياته، تذكر ما قالته له أمه: أردناك بنتا فجئت ولدا.. ومحاميا فأصبحت موسيقيا .. ووجد نفسه يغنى وأصابعه تلعب على البيانو: الصدفة حياتى.. الميلاد صدفة .. الحب صدفة.. الموت صدفة.. العذاب صدفة .. وأنا صدفة !!

شعر بالغضب من نفسه وراح يدق بأصابعه بقوة على البيانو وهو يردد من يغنى الناس أغنية لايمكن أن يكون صدفة .

وصرخ : أنا لست صدفة .. أنا عمرو ..

●

ورنت زغرودة وهللت سيدة :

— جليلة ..

لم يكن فى حاجة إلى أن يسمع عبارة : وصلت ياسى عمرو.. طار إلى بوابة الفيللا .. وجدها فى حضنته .. نظر فى وجهها.. لم ير جليلة ابنة الهلالية .. أبصر امرأة أخرى كما لو كانت قادمة من أسطورة عشق . شعر بالخوف .. وكما لو انه أراد أن يستعين بالموسيقى على خوفه .. حملها إلى حجرة ألحانه .. وراح يعزف.. ليست نغمته التى يريد أن تستقبل جليلة .. يمسك يد الواقفة أمامه يتحسس شعرها .. يسمع ضحكتها .. ليست جليلة التى أحبها فى ربيع العمر فى حارة الهلالية يريد جليلة الفرس الجامحة التى قبلته أمام أهل الهلالية فى ليلة فرح مجدى.

شعرت جليلة بما يعتمل فى داخله .. غيرها الزمن وهو يريد جليلة التى كانت خائفة لم يغيرها الزمن .. كانت خائفة من هذه اللحظة فبكت!

صاح عمرو :

— جليلة ابنة الهلالية .. عرفتك من البكاء، تذكرين عندما كنا نمشى فى ظلال حدائق جاردن سيتى واسترحنا فى حضن النيل وقلت لك : أحبك .. فبكيت ..

ونظرت إلى النيل فوجدت النيل يفيض بدموعك .. قلت: تذكرينى يايزيس ..

تذكر موقف الحارة فقال فى تحد :

— خرجت من الهلالية فى الظلام .. وستعودين للهلالية فى نور النهار.

وأمسك أصابعها بأصابعه وهو يقول :

— وتعتذر الهلالية عما سببته لك من اهانة ..

وقالت فى خفر :

— اذهب مع عمرو

وكأنها قالت : اذهب مع حبيبى ..

●

وكانت الهلالية تحتفل بعودة ابنها عمرو الذى انتصر على الظلم والراوى يروى على الربابة سيرة البطل الهمام الذى هزم الأعداء وعاد إلى أهله بنصره ..

وعندما أبصروه يدخل عليهم وجليلة فى يده لم يصدقوا أن الزمن الشحيح يمكن أن يجود بلحظة يجتمع فيها الحبيب بالحبيبة بعد طول فراق .. ولم تعد ذاكرتهم تذكر تلك اللحظة فى ليلة فرح مجدى.. كل ما تذكروه هو أنهم قد أخطأوا فى حق ابنهم عمرو وتسببوا فى طرد جليلة من الحارة وكان هذا سبب ضياعه .. فراحوا يمسكون عمرو وجليلة بأيديهم .. يريدون أن يتأكدوا من أن السماء قد استجابت لدعواتهم فى أن يجد عمرو جليلة. ليعود لهم كما كان ــ فى الماضى ـ يجلس بينهم ويشاركهم أفراحهم ويغنى ويغنون معه .. وعندما قرأوا فى الصحف حادث المرأة المخنوقة ومانشر من تشهير بابنهم شعروا بتأنيب الضمير .. والضمير الجمعى للحارة يقسوا فى حكمه فقسوا على أنفسهم .. وراحت الهلالية تجلد نفسها فى صحوها ونومها .. بالغوا فى لوم أنفسهم.. لذا عندما تأكدوا من أن اجتماع الشمل قد حدث .. وعاد عمرو وفى يده جليلة إلى الحارة .. طاروا بالفرحة وراحو يهللون.. واكتشفوا ــ بعد قليل ــ أن تهليلهم لا يكفى للتعبير عن فرحهم الغامر، فقاموا يرقصون . فلعل بأجسادهم يستطيعون التعبير عما عجزت أيديهم عن التعبير عنه .. وبدت الحارة كما لو كانت تكفر عن خطيئتها فى حق فتاها الذى طردوا حبيبته فتعذب كثيرا.

●

جلس عمرو فى صدر الحارة وجليلة فى عينيه .. وراح يتفرس الحارة التى أسكرتها فرحة عودته وفى يده ابنتهم جليلة .. لايصدق أن هذه الحارة التى قست عليه واغتالت حبه بطرد جليلة فى الظلام وجعلته يغرق فى الضياع وتجسدت له ـ فى لحظة ـ كما لو كانت غرناطة المدينة الاسبانية التى اغتالت شاعرها لوركا بحقدها .. ليقرر أن يتحدى الهلالية . ويصبح موسيقارا كبيرا لايرونه الا صورة فى الصحف .. ولا يسمعونه الا حديثا فى التليفزيون.. ويسافر إلى مدن يقرأون عنها فى الكتب .. ويعيش كالامراء وتحبه اميرات ويرفعون الرءوس ليرونه نجما فى السماء يخطف بريقه عيونهم ويجرى ما جرى .. وتصبح حياته الخاصة حكاية على كل لسان ..

ويزداد غضبا على أهل الهلالية .. فلولا أنهم فعلوا بجليلة مافعلوا ما حدث له هذا ..

وفى ليلة من ليالى سجنه القاتلة.. اكتشف أن ـ فى داخله ـ حبا للحارة .. فراح يخنقه ويدفنه فى أعماق أعماقه .. وعندما أبصر جليلة تبكى أمامه .. تذكر أن الهلالية قد أهانت حبيبته والمرأة التى ستكون أم أولاده .. لقد طردتها فى الظلام .. لابد من أن يرد لها اعتبارها .. تستقبلها الحارة فى وضح النهار وتعتذر لها .. ولكنه فوجىء بأن الهلالية يفرشون لها قلوبهم لتمشى عليها جليلة بمجرد أن أبصرها فى يده.. أين كانوا يخفون كل هذا الحب؟

زار مدنا مختلفة والتقى بأناس كثيرين .. ولكنه ما شاهد طيبة مثل هذه الطيبة ..ولا التقى بقلوب تحمل كل هذا التسامح .. فتح عينيه على اتساعهما .. كما لو كان قد حدثت له لحظة استنارة .. يكتشف أهل حارته التى ولد فيها وعاش صباه ـ للمرة الأولى ـ لم يعرف أهله مثلما يعرفهم الآن.. بدوا له كما لو كانوا من غير طينة البشر .. قفز إلى رأسه.. ماطلبه صبرى منه فى باريس .. أن يعتزل ألحان الشيطان .. ليجعله يعيش فى الجنة.. فإخوانه يملكون الجنة فى الدنيا والآخرة.. شعر بأن الجنة عند هؤلاء البسطاء الذين احتفظوا بالبراءة فى دنيا قد جنت بالمادة .. بمجرد أن أبصروه يدخل الحارة وجليلة فى يده .. نسوا أنهما قد تجاسرا على تقاليدهم.. وأنه تصرف كما لو كان فى أوربا .. نسى أن الحب فى حارة الهلالية هو أن يطرق الحبيب باب البيت ويطلب يد حبيبته .. كان ينبغى أن يحاكم نفسه قبل أن يحاكمهم .. امتلأت نفسه بالرغبة فى أن يصرخ: أخطأت يا أهل الهلالية فى حقكم ـ ولكنه وجد نفسه يصرخ : يا أهل الهلالية أطلب منكم يد جليلة ولم يتركوه يقول: أنتم أهلها .. جنت الحارة بالفرحة ولم تجد ما تعبر به عن جنون فرحتهم سوى أن يرقص الرجال لتزغرد النساء .. ولم يجد عمرو شيئا يفعله ليعبر عن حبه للهلالية الذى تفجر فى داخله ينبوعا سوى أن يخلع ملابسه ويرتدى جلباب أحدهم ويمسك بالعصا ويرقص..

ولا تتركه جليلة وحده ..

...

ويشتعل عمـرو ـ وهـو يعرف نفســه فى مثل هذه اللحظـة . عاد طـائر الألحان إليه ..

لقد تحققت النبوءة .. تطهر فى بحر الناس .

●

وجرى إلى الحجـرة التى شهدت بكارة أيـامه الأولى .. عندمـا كان يغلق البـاب عليه .. ولا يعـرف الليل من النهار ويسبح فى بحـر الموسيقى وجلس إلى بيانـو أمه القديم وجلست جليلة أمـامه وراح يعزف وصـاح بفـرحته: .. وجدتها يا جليلة .. نغمتى عادت إلى .. أشعـر أننى لست عازفها ، الناس هم الذين يعزفونها ..

وضعت أصابعهـا على فمها بدلالها تقـول له لا تنشغل عنهـا بالحديث حتى لا تغضب وتهرب منك ..

قال :

— كان لابد من كل هذا العذاب لأرى الهلالية ..

وأغمض عينيه ، كما لـو كان بهذا يريـد الا يهرب اكتشـافه للهـلالية من جديد وراح يعزف .. عادت إلى أصابعه بكارته فصاح :

— للملايين يغنون ..

لم تكن جليلة تسمع سوى نغمته فضحكت ..

قال غاضبا :

— لا تضحكى .. أغنيتى .. أغنية الملايين ..

وكأنه يحلم وهو يقول :

— ويقوم المجد الراقد ويفرح الحزانى ويغنون ويبنون ..

وأمسكها من يدها وهو يقول :

— امسكى قلبى .. ينبوع حب الناس يتدفق موسيقى ..

وبدا لعمرو ـ فى لحظة ـ كما لو كانت الجالسة أمامه أمه وهى تقول له:

— لن تخرج من هنا حتى تعطى لكل واحد من أهلك نصيبه!

وفتح عينيه على اتساعهما ليرى جليلة وهى تقول :

— وأنا أطعمك ..

— وأنا أطعم الهلالية بفنى ..

وشعر بلحظة زهو . الدنيا أصبحت فى قبضته .. نغمته عادت إليه.

قال :

— وأسجل انتصارى على الشيطان وأهزمه بسيمفونية فرحى!

قالت بسرعة وقدظننته قد أخطأ :

— فرح الناس ..

قال منفعلا :

— فرحى أنا يا جليلة .. أنا دفعت الثمن ..

رمقته بنظرة ترجوه ألا يجرح فرحهما بزهوه .. فقال وقد مسته بنظرتها:

— لك حق يا جليلة .. لقد أخطأت .. ليس هذا وقت الزهو ..

ونظر اليها وقد توقع أن يسمعها تقول : انما وقت فرح الحزانى.. ولكنه أبصر الخوف فى عينيها فقال:

— لاتخافى ..

لاذت بصمتها . أراد أن يخرجها من صمتها .. تذكر فى لحظة جنونه وهو يبحث عن جليلة فى كل النساء أنه سرق القمر من أجل عينيها. فقال :

— الذى أخفى القمر بين رموش عينيه من أجل جليلة .. يعرف كيف يصون نغمة الناس فى عينيه .

ضحكت بدلالها :

— سرقت القمر من أجل جليلة ؟! وتضاحك وهو يقول:

— وأظلمت الدنيا

قالت كما لو كان الأمر جدا :

— وعشاق القمر عرفوا؟

— فضحنى نوره ..

— لم تستطع أن تخفى نوره

— وتجمعوا حولى يطالبون بفك أسره ..
— واستجبت .. ؟
— بالطبع رفضت ..
— ماذا فعلوا ؟
— سرقوا نغمتى ..
ووصلها صوت ناس الهلالية وقد ثملوا بنشوتهم ..
— وأعدت اليهم قمرهم ..
— وأعطونى نغمتى .. لأعزف سيمفونيتهم ..
— بماذا تسميها
— جليلة ..
تصنعت الغضب :
— أنت لاتحبنى يا عمرو ..
— أنا يا قمر الزمان !!
— تريد أن يأسرونى ..
— لا أحد يستطيع أن يقترب من قمر زمانى .
— تسميها الهلالية .
دمعت عيناه بالتأثر وهو يقول :
— اسميها الهلالية .. فالجليلة هى الوطن ..
وأصاخ السمع ومعه جليلة ووصلهما من الحارة صوت الراوى وهو يروى على الربابة ويقول : ياسادة يا كرام .. صلوا على النبى المختار.. حكاية الليلة الهلالية ..بطلها الفتى الهمام عمرو الذى سرق القمر من أجل أن يكحل عينى محبوبته جليلة بعشقه ويسترد نغمته...

تمت

رقم الإيداع ٤١٧٤ / ٩٦
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0277 - 8

هــذا
الكتاب

نستطيع ان تحكم على اى شعب من خلال الحياة ـى الحارة وليس من خلال الأحياء الراقيـة فى المدن.. فالحارة هى التى تحتفظ بكل المقومات الأساسية واصالة الشعب واخلاقه.. لذلك فالحياة فى الحارة لها مذاق خاص..

وكل من يقرأ رواية الهلاليـة لمحمد جلال سيتذكر حتما روايات نجيب محفوظ العظيمة التى تجسد الحياة فى الحـ المصرية «خان الخليلى».. «زقاق المدق».. «الثلاثية».

لكن هناك فارق بين حارة نجيب محفوظ وحارة محمد جلال.. حارة الطيب والهلالية.. تماما كالفارق بين مصر فى العشرينات والثلاثينات.. ومصر الان فى التسعينات.فالحـ ـرة عند نجيب محفوظ هى المسرح الذى يعيش فيه ابطال رواياته لا يغادرونها ابدا.. يولدون فيها ويموتون فيها.. أما عند محمد جلا ـ.. فالحارة هى مجرد رمز لاصل عائلة هاجر أبناؤها للعيش فى حياء القاهرة الراقيه.. بينما فضلت الام ان تبقى فى حارة الهـ ـية بين اهلها الطيبين.. واحداث الرواية ليست محصورة فى الحارة فقط.. بل فى أحياء اخرى.. وحتى فى باريس.وعلى الرغم من خروج أبطال الهلالية للعيش بعيدا عن الحارة.. الا أن الرابطة النفسـة التى تربطهم بالحارة وباهلها مازالت قوية.. وان تراث الحارة ما ـل فى وجدانهم وعقولهم وهو المؤثر الأول على تصرفاتهم..

والهلالية ليست مجرد رواية عن حارة من حوارى ـسيدة.. بل هى فى الواقع رواية تجسد حياة المصريين فى هذا الزمان الغريب.

نبيل أباظة

جنيـ٤ـهات